مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الثالث	١٣ ربيع أول سنة ١٣٦٠	المجلد الثاني عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عن سنة

ملم

داخل القطر ٢٠٠

لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠

خارج القطر ٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤١)

فهرس

الجزء الثالث — المجلد الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

— ٢ —

بسم الله الرحمن الرحيم :

« آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » :

الخلافة : النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه أو موته أو عجزه . ويقال : خلف فلان فلانا : قام بالأمر عنه ، إما معه أو بعده .

والأجر : ما يعود على العامل من ثواب العمل ، دنيويا كان أو أخرويا . ويقال لما كان عن عقد أو ما يجرى مجرى العقد ، ولا يقال إلا فى النفع .

بعد أن بيّن الله سبحانه أنواعا من الدلائل على وجوده ووحدته وقدرته وحكمته ، وأنه لا يصدر منه إلا ما هو خير ومصلحة ، توجّه الى العباد وأمرهم بالإيمان بالله وبرسوله ، وبالإنفاق فى سبيله . والخطاب موجه الى الناس جميعهم من آمن منهم ومن لم يؤمن ، أما من آمن فيطلب الثبات على الايمان وعدم الزيغ والنفاق ، وأما من لم يؤمن فيطلب الإقرار بالله ورسوله ثم الإنفاق ؛ والمخاطبون مختلفون ؛ والخطاب يتوجه الى كل واحد بما يليق به ؛ كما يقال لأهل بلد من البلاد : صلوا وأنفقوا وأوفوا الكيل ، فيفهم كل واحد من الخطاب ما هو لائق به ، فمن كان يصلى ثابر على الصلاة ، ومن كان لا يصلى صلى ، ومن كان يخسر فى الكيل أوفى ، وهكذا .

طلب الله سبحانه الى عباده الإنفاق مما بأيديهم فى سبيل البر ، ونبههم الى أن الأموال التى فى أيديهم ليست أموالهم على الحقيقة ، بل هى أموال الله سبحانه ، أنشأها وخلقها وخولهم الاستمتاع بها ، ومكنهم من التصرف فيها ، فهم خلفاؤه ووكلاؤه ، وإلى أن هذه الأموال انتهت إليهم عن غيرهم ، وستنتقل عنهم الى غيرهم ، فهم خلفاء عمن قبلهم وسيخلفهم من بعدهم ؛ وإذا كان المال مال الله تداولته الأيدى ، فلا وجه للحرص الشديد عليه ، وخير أن يدخره الانسان عند الله ليكون له أجره يوم الحساب من أن يخرج الى الوارث ، أو يخرج بجائحة من الجوائح . وفى الحديث الشريف « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » !

« فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » : كان الظاهر أن يقال : آمنوا وأنفقوا تؤجروا ، لكنه عدل عن الظاهر الى هذه الجملة الاسمية ، وأعيد ذكر الإيمان والإنفاق ، وفخم الأجر بالتنكير ، ووصف بالكبير ، كل هذا للدلالة على فخامة الأجر واستمراره ، وتعظيم الإيمان والإنفاق . وقد سمى الله ما يعود على فاعل الخير أجرا ، لأن الله سبحانه وعد الصالحين أن يجزيهم جزاء حسنا ؛ فكأن هناك تعاقدا بين العبد وربه ، واتفاقا على أن يوفى جزاء عمله .

« وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » :

« لا تؤمنون » : حال من معنى الفعل فى ما لكم ، كما تقول : مالك قائما ، بمعنى ما تصنع قائما .

« والرسول يدعوكم » : جملة حالية أيضا ، فهما حالان متداخلتان . والمعنى : ما لكم كافرين بالله والرسولُ يدعوكم ويتلو عليكم الآيات ويقيم عليكم البراهين ، وقد أخذ الله من قبل عليكم الميثاق بالإيمان حين ركب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من النظر ، وأزاح عنكم العلل ؟ لا عذر مع هذا كله ، فإن كنتم مستعدين للإيمان فقد وجب ، وهذا وقته ، والأسباب متوافرة ، والموانع غير قائمة . فقوله : « إن كنتم مؤمنين » شرطٌ جوابه فهذا وقته أو فقد وجب .

بيّن الله سبحانه أن لا عذر لأحد لأن الأدلة السمعية قائمة هى دعوة الرسول وآياته ، والأدلة العقلية قائمة هى دلائل الآفاق والأنفس ، ووجود العقل المستعد للنظر والاستدلال . وحمل بعض المفسرين الميثاق على ما هو مشار إليه بقوله سبحانه : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى » . وهذا الحمل غير

لائق لأن الميثاق على هذا النحو (١) لم يعرف إلا من جهة الرسول ، وقبل تصديق الرسول والايمان به لا يكون قوله سببا فى إلزامهم ، وإنما الذى هو سبب الإلزام – كما نفهم – هو الدليل العقلى القائم المشاهد بالحواس ، والذى يتصرف العقل فيه بوجوه النظر والاستدلال .

« هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » :

الآية : العلامة الظاهرة . وتحقيقها شىء ظاهر ملازم لشىء آخر غير ظاهر ظهوره ، فاذا أدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر . مثلا : إذا علم شخص أن العَلَم يلازم النهج ثم وجد العلم ، علم أنه أدرك الطريق ؛ وإذا علم شيئا مصنوعا علم أنه لا بد له من صانع .

والبينة : الدلالة الواضحة عقلية أو حسية . والبيان قسمان : بيان بالتنجيز وهو بيان الأشياء التى تدل على حال من الأحوال من آثار الصنع ، وبيان بالاختبار بالنطق أو بالإشارة أو بالكتابة وما أشبه ذلك .

والظلمة : عدم النور ، ويعبر بها عن الجهل والشرك والفسق ، كما يعبر بالنور عن أضدادها .

والرأفة والرحمة : واحد ، وهى رقة تقتضى الإحسان الى المرحوم . وتستعمل فى الرقة المجردة ، وفى الاحسان المجرد ؛ وإذا وصف الله بها فليس معناها إلا الإحسان والإنعام .

بعد أن بين الله سبحانه أنه لا عذر فى ترك الإيمان لوجود الميثاق ودعوة الرسول ، بيّن فى هذه الآية أن دعوة الرسول موجهة اليهم من قبل الله سبحانه رأفة بهم ورحمة ، فهو الذى نزّل على عبده الآيات البينات المفصلات الواضحات ليخرجهم من ظلمة الكفر والجهل الى نور الايمان والعلم ؛ وما على الرسول إلا البلاغ ؛ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، فقد قطع العذر ببعث الرسل ، وأقام الحجة على خلقه .

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » :

(١) هذا جريا على أن الميثاق فى الآية ميثاق خطاب لا ميثاق الادلة . وهما رأيان للمفسرين .

الوراثة : انتقال قنية الى شخص من غيره من غير عقد ولا ما يجرى مجرى العقد . وقد وصف الله نفسه بالوارث لأن مصير الأشياء جميعها اليه سبحانه

الحسنى : الحسن : كل مبهج مرغوب فيه . والحسنة نعمة تنال الانسان وتسره فى نفسه أو بدنه أو أمواله . والحسن يقال فى الأعيان والأحداث ، والحسنى لا تقال إلا فى الأحداث .

الخبير : الُخبرة : معرفة بواطن الامور ؛ والُخبر : العلم بالأشياء من جهة الخبر . وإذا قيل : الله خبير بما تعملون ، صح أن يكون معناه : الله عالم بأخباركم ، وأن يكون معناه : عالم ببواطن أموركم .

ومعنى الآيات : أيّ غرض لكم فى ترك الإنفاق فى سبيل الله ، والله سبحانه سيرث السموات والأرض وما فيهن ، والاموال صائرة إليه ؟ فإذا لم تنفقوها فى سبيله ذهبت منكم بعد موتكم دون مقابل فلم تنتفعوا منها بشيء ، أما إذا أنفقتموها فى سبيله فسينالكم الحظ والأجر ، وتكون مدخرة عنده . وهذا ندب الى الإنفاق ، وحث شديد عليه ، وتقريع على تركه ؛ وكأنه يقول : إنه لايتصف بهذا عاقل ولا يرضاه ، لأن تصرف العقلاء يجب أن يكون له باعث ومصلحة ، ولا مصلحة فى ترك الإنفاق ، بل المصلحة فى الإنفاق لنيل الأجر . وهذه الآية أقوى فى الحث على الإنفاق من الآية السابقة .

وقد كان هناك قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، وكان هناك نفقتان إحداها أفضل من الأخرى : كانت النفقة والقتال قبل فتح مكة أفضلَ من النفقة والقتال بعد فتح مكة ؛ فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح ، لأن الأولين فعلوا ما فعلوه عند مسيس الحاجة الى النصرة بالأنفس والأموال ، لقلة عدد المسلمين وفقرهم ، وكثرة أعدائهم ويسرهم ، ولأنه لم يكن إذ ذاك غنائم تنتظر ، ولا كان الوثوق بالظفر ، فكانت النفقة أشق على النفس ، وكانت الحاجة إليها ماحة ، وكذلك شأن القتال ؛ فالنفقة والقتال قبل الفتح من أعظم الأدلة على الإيمان والإخلاص ، وعلى أنهما ابتغى بهما وجه الله . وهذا معنى قوله سبحانه : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » أى لا يستوى هو ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل . وقد دلّ على هذا قوله : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا » .

نفى الله استواء الفريقين فى الأجر ، ولكنه أثبت لهما معا الحسنى ، وهى المثوبة فى الدار الآخرة ، وهى الجنة ورضوان الله سبحانه .

والله سبحانه خبير بأعمال العباد ظاهرها وباطنها ، وعالم بأخبارهم ، وسيجازى على مقدار الأعمال وما يحيط بها من الملابسات ، وما يدفع إليها من الغايات والنيات .

« مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » :

القرض : ما يدفع من المال على شرط رده . وإذا وصف الله بالكرم فمعناه إحسانه وإنعامه المتظاهران ؛ وإذا وصف الإنسان بالكرم فهو اسم للأفعال والأخلاق المحمودة التى تظهر عليه ؛ ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه . وكل شىء شَرُف فى بابه يقال له كريم .

سمى الله سبحانه قرضا ما ينفق فى سبيله وفى وجوه الخير ابتغاء مرضاته . والقرض كما سبق بيانه : ما يعطى على شرط الرّد ؛ ففى ذلك دلالة على أنه سيرده الى المنفق . ثم ذكر صراحة أنه سيعطيه أجرا كريما ، وأنه سيضاعف هذا الأجر الكريم . ولا يوجد ما هو أبلغ فى الحث على الصدقة والإحسان من هذا التعبير . يقول الله سبحانه : هذه يدى بسطتها أريد قرضا سأرده ، وسأجزى عليه أجرا كريما مضاعفا ؛ فمن الذى يسمع هذا ولا يبادر الى الإجابة ويتمم عقد القرض مع الله ؟ فالجملة مسوقة مساق التمثيل ، وأثرها ظاهر فى النفس ، وهى أبلغ من كل عبارة تقال فى الحث على الصدقة . وقد ذكروا أن يهوديا قال عند نزول هذه الآية : ما استقرض إله محمد حتى افتقر ! فلطمه أبو بكر ، فشكا اليهودى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لأبى بكر : ما أردت بهذا ؟ قال : ما ملكت نفسى أن لطمته ، ولم يقلها اليهودى إلا استهزاء وحمقا وجهلا .

وقد ذكروا فى شروط القرض الحسن وجوها : أن يكون حلالا ، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب ؛ وأن لا يكون رديئا ؛ وأن يعطى للأحوج فالأحوج ؛ وأن يكتم الصدقة ولا يتبعها المن والأذى ؛ وأن يقصد بها وجه الله دون الرياء ؛ وأن لا يستكثرها وإن كانت كثيرة ؛ وأن تكون من المال المحبوب عنده ؛ وأن لا يرى لنفسه عزة الغنى ويرى للفقير ذلة الفقر ؛ وأن يكون الانفاق فى حال رجاء الحياة وطول الأمل .

وقد أكثر الله سبحانه فى القرآن من الحث على الصدقات بأساليب مختلفة ؛ وفى سورة البقرة طائفة من الآيات ، نورد بعضها هنا تتمة لموضوع الصدقة :

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يُتْبِعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذًى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يَتْبعها أذى ، والله غنى حليم » ، « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتَثْبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بِرَبْوَةٍ أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين ، فإن لم يصبها وَابِلٌ فطَلٌّ ، والله بما تعملون بصير » ، « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغْمِضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » ، « إن تُبدُوا الصدقاتِ فنعمّا هى ، وإن تخفوها وتؤتوها

الفقراء فهو خير لكم » ، « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أُحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ، يحسَبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

ففى هذه الآيات ترغيب فى النفقة ، وفيها شروط القرض الحسن التى مر ذكرها . وهناك أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرغبة فى الصدقة . وكل هذا يدل على روح الاسلام وحبه للتعاون والتناصر ، تحقيقا للوحدة التى يبتغيها ، وتزهيدا فى المال إذا وجدت مصارفه وبان موضع الحق فيه . وهذا يدل على قيمة المال ، وعلى أن له قدرا عظيما ، فإنه وسيلة الى تحصيل الأجر العظيم من الله ، ووسيلة الى أن يعقد المؤمن مع الله قروضا ، وهو وسيلة فى إعزاز البلاد وإعزاز الدين إذا ما تعرض المسلم للجهاد ؛ فلا يجوز التزهيد فى المال على معنى عدم طلبه وعدم جمعه ، وإنما يكون التزهيد فيه على معنى عدم حبه الحب الموجب لادخاره ؛ وكيف يزهد فى المال مع أن الله وعد منفقه بالأجر العظيم ، وبالأمن والمسرة ، حيث قال : « لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؟

استمر السلف الصالح يفهمون هذه الآيات ويعملون بها ، فصانوا بلادهم وأنفسهم ، وأيدوا الوحدة الاسلامية والتضامن بين أفراد الأمة ، وقويت الروابط بينهم ، فلم يحقد الفقراء على الأغنياء ، ولم ينظر الأغنياء الى الفقراء نظر المدل الفخور ؛ ثم نسى ذلك وقست القلوب ، فظلم الناس فى جمع المال ، وظلموا فى ادخاره . ولا سبيل إلا بالرجوع الى الله وكتابه ، ولا فلاح إلا بالإيمان والتقوى ، والإنفاق فى سبيل الله .

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » :

السعى : المشى السريع دون العدو . وبشرته : أخبرته بخبر سار بسط بشرة وجهه . ويقال للخبر السار بشارة وبشرى . والفوز : الظفر بالخير مع حصول السلامة .

بعد أن رغّب الله سبحانه فى الإنفاق ، وحث عليه ، ووعد بالأجر الكريم عليه ، وبالمضاعفة ، بين أن ذلك الأجر المضاعف يكون يوم القيامة . وقد اختلف العلماء فى تفسير ذلك النور : فمن ابن مسعود وقتادة : هو ضياء حقيقى والمؤمنون والمؤمنات يضئ نورهم بين أيديهم وعن أيمانهم ، ونورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يضئ نوره كما بين عدن وصنعاء ، ومنهم من يكون نوره مثل الجبل ، ومنهم من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه ، وأدناهم

نورا من يكون نوره على إبهامه فينطفئ مرة ويتقد أخرى . وقال بعضهم : هو نور الهداية الى الجنة ، ونور الأعمال الصالحة والمعارف الحقة .

وقوله تعالى : « وبأيمانهم » هو خبر (١) والمبتدأ محذوف . والمعنى : يسعى هداهم بين أيديهم ، وبأيمانهم كتبهم وسجل أعمالهم ؛ وهى فى ذلك نظير قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » . ونور البصيرة والمعرفة إذ ذاك هو الأحق بأن يسمى نورا ، ومقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف ، والله سبحانه هو النور الحقيقى ، والنور المشتق ممن نوره هو نور الهداية والمعرفة . ولو كان المراد الضياء الحقيقى لما خص بالسعى بين الأيدى ، بل كان يعم جميع الجهات ؛ والتخصيص بالسعى بين الأيدى دليل على أنه عنى به معنى آخر .

وقوله : « بشراكم اليوم جنات » : أى يقال للمؤمنين فى ذلك اليوم : ما تبشَّرون به اليوم هو جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها لا تتحولون عنها ، وهذا الخلود فى الجنات هو الظفر والنجح العظيم .

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ ، هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » :

النفاق : الدخول فى الشرع عن باب والخروج عنه من باب آخر .

أنظرونا : قرأ عامة قراء المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة : انظرونا موصولة ، بمعنى انتظرونا ؛ وعامة أهل الكوفة : أنظرونا مقطوعة الألف من أنظرت . وذكر الفراء أن العرب تقول : انظرنى وهم يريدون انتظرنى قليلا . قال ابن جرير : والصواب من ذلك قراءة

---

(١) يرى بعض المفسرين أن قوله « وبأيمانهم » معطوف على أيديهم ، وأن الباء بمعنى عن . وعدل الشيخ عن هذا لان النور إذا كان يسعى بين الايدى فهو ينتشر بطبعه الى الايمان فلا يفيد ذكر الايمان معنى جديدا . على أنه كان يكفى مجرد العطف بدون ذكر الباء . والموضع لمن . وقد عين المحذوف بالآية التى استشهد بها .

الوصل لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب إذا أريد به انتظرنا ، وعلى قراءة الوصل يصح أن يكون المعنى : انظروا الينا .

والقبس : هو المتناول من الشعلة ؛ والاقتباس : طلب ذلك ، ويستعار لطلب الهداية .

التمسوا : أى اطلبوا . والمس : إدراك بظاهر البشرة كاللمس ، ويعبر به عن الطلب ؛ ومنه قوله : وألمسه فلا أجده ، وقول الله سبحانه : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حَرسا شديدا وشهبا » .

وأصل الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ؛ واستعمل فى إدخال الناس النَّار ؛ ويستعمل أيضا فيما يحصل منه العذاب ؛ ومنه « ألا فى الفتنة سقطوا » . ويستعمل استعمال البلاء فيما يدفع اليه الإنسان من شدة .

والتربص : الانتظار بالشيء ، مثل تربص غلاء السلعة أو رخصها ، وتربص زوال الشيء أو حصوله . ويقال : رابنى ريبا وأرابنى إرابة . والريب : أن تتوهم بالشيء أمراً ما فينكشف عما تتوهمه . وسمى ريب المنون ريبا مع أنه لا شك فيه باعتبار الشك فى وقته .

والغـرة : غفلة فى اليقظة ؛ يقال : غررت فلانا إذا أصبت غرته ونلت منه ما تريد . وغَرُّ الثوب أثرُ كسره ؛ ومنه قيل : اطوه على غَره . وغره كذا غرورا كأنما طواه على غره .

والتمنى : تقدير شيء فى النفس وتصويره فيها ، قد يكون عن ظن ، وقد يكون عن روية وبناء على أصل ، وأكثره ما كان عن تخمين ؛ فصار الكذب له أملك . وأكثر التمنى تصور ما لا حقيقة له .

والفدية والفداء : حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه .

والمأوى : اسم للمكان الذى يأوى اليه أى ينضم اليه . ويقال : صار الى كذا أى انتهى اليه فى تنقله وحركته . ومنه « وإليه المصير » .

بعد أن صور الله حالة المؤمنين يوم القيامة ، وبين أن نورهم يسعى بين أيديهم ، وأنهم يبشرون بالخلود فى الجنة ، صور فى هذه الآيات حال المنافقين الذين دخلوا فى الاسلام من باب وخرجوا منه من باب ، فهم فى الظاهر مع المؤمنين وفى الباطن مع الكافرين ؛ ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا » .

وقد روى عن ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا على الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : انظرونا نقتبس من نوركم فانا كنا معكم فى الدين ؛

قال المؤمنون : ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا النور هناك ، فضرب الله بين الفريقين بسور ، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار .

وهـذا التصوير ظاهر على رأى القائلين بأن النور نور حقيقى هو ضياء ، وعلى أن معنى انظرونا أمهلونا حتى نسير معكم فى نوركم فإنا لا نرى حولنا إلا ظلمات لا نستطيع السير فيها ، ويكون الاقتباس واضحا أيضا ، لأنه تناول النور من الشعلة .

أما على الرأى القائل بأن النور نور الهداية ، فيكون المعنى : انظرونا نسر فى هديكم معكم ؛ ويكون الاقتباس معناه الانتفاع بالهداية ، ويكون معنى قول المؤمنين لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا : ارجعوا فاطلبوا الهداية من خلفكم لا من عندنا ، إما من الدنيا بتحصيل الأعمال الصالحة التى ثمرتها الهداية يوم القيامة ، وإما من الموقف المظلم قبل أن يشع نور الهداية للمؤمنين ؛ وكلا الأمرين مستحيل ، لأن الرجوع الى الدنيا غير ميسور ، وحصول الهداية من الموقف المظلم غير ميسور .

وعلى كل حال فتفسير انظرونا بانظروا الينا فإنكم إذا نظرتم الينا وقع نوركم أمامنا فأمكن من السير ، غير واضح ، لأنهم إذا نظروا اليهم وتقابلوا كيف يمكن السير ؟

وسواء أكان النور ضياء أم كان هداية ، فقد بين الله سبحانه أنه يفصل فى ذلك اليوم بين الفريقين بحاجز له باب باطنه من قبل المؤمنين رحمة وسلام ، وظاهره من قبل المنافقين عذاب ، وأن المنافقين ينادون المؤمنين : ألم نكن معكم نعمل أعمالكم من صلاة وصيام ونقيم الشعائر ، فلم تمتازون علينا وتخصون بهذه النعم ؟ فيقول لهم المؤمنون : حقا كنتم معنا ولكنكم أوقعتم أنفسكم فى البلاء ، وعملتم ما هو سبب فى دخول النار ، وتربصتم أن تدور الدائرة علينا فيضعف أمرنا ، ويهون شأننا ، ويزول من الوجود ظلنا ، وشككتم فى الدين ، وغرتكم الأمانى التى كنتم تقدرونها وتمنون أنفسكم بها من زوال الإسلام وانعكاس أمر المسلمين ؛ ظللتم على هـذا الحال حتى جاء أمر الله وهلكتم ، وفارقتم الدنيا ، وعجزتم عن اكتساب صالحات الأعمال ، وغركم الشيطان وزين لكم النفاق بما أوقع فى صدوركم من الأمانى ، وبما لوح لكم من عفو الله ؛ فاليوم لا سبيل الى النجاة ، ولا سبيل الى دفع الفدية والبدل الذى يؤخذ منكم للنجاة من النار ؛ النار أولى وأحق بكم ، والنار بئس المصير الذى انتهيتم إليه بعد طول التنقل . وعلى هذا فكلمة مولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى لا أنه مشتق منه . ومثله لفظ مئنة ، تقول : فلان مئنة الكرم ، أى هو مكان لقول القائل : إنه لكريم . وقد يكون معنى المولى الناصر ، أى لا ناصر لكم غير النار ، من قبيل قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . سمى الضرب الوجيع تحية على معنى أنه لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع ، فإنهم لا يستحقون غيره تحية .

هذا التصوير لحال المؤمنين وحال المنافقين ، مما يبعث الرغبة الى الإنفاق فى نفس المؤمن ، ليزيد نوره فى ذلك اليوم ، ويكون مع المؤمنين الذين يسيرون الى الجنة كما يسير البرق الخاطف ولا تنالهم أهوال يوم القيامة ، ولا يكون مع المنافقين الذين يتخبطون فى الظلمات ، ويقتبسون النور فلا يمكنون منه ، ويتهكم عليهم المؤمنون بقولهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا .

وقد رغب الله فيما سبق من الآيات فى الإنفاق على وجوه شتى :

أولها : وعد الذين أنفقوا بأن لهم أجرا كبيرا .

وثانيها : تنبيههم الى أن هذه الأموال ليست أموالهم بل هم وكلاء مستخلفون فى التصرف فيها .

وثالثها : أنها ستذهب عنهم وتصير الى الله وارث السموات والأرض .

ورابعها : هذا التصوير القوى لحال المؤمنين وحال المنافقين .

« يتبع »

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

غزوات وسرايا فيما بقي من السنة الخامسة وفى السنة السادسة للهجرة

لما آب النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة الأحزاب، وهمّ أن يخلع لبوس الحرب، أوحى اليه أن يقاتل بنى قريظة، وهم من اليهود المجاورين للمدينة، تأديبا لهم على خيانتهم العهد، وعلى ممالأتهم للمشركين عندما قدموا لمقاتلة المسلمين. فما وسع النبي صلى الله عليه وسلم وقد أمر بأن يغزوهم على الفور إلا أن قال لأصحابه: لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة. فصدعوا بالأمر وخرجوا طالبين ديار بنى قريظة، وتبعهم رسول الله، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف مقاتل لواؤهم بيد على بن أبى طالب.

فلما وصلوا الى أرض بنى قريظة بادر هؤلاء فاعتصموا بحصونهم، فحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة، فرأوا أن لا مناص من التسليم، فطلبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك السلاح والجلاء بالأموال، فلم يقبل منهم ذلك. فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم تاركين سلاحهم وأموالهم، فأبى طالبا اليهم أن ينزلوا على حكمه. فرجوه أن يرسل اليهم بأحد رجاله أبى لبابة، وكان حليفا لهم فى الجاهلية، ليستشيروه. فأرسله اليهم. فلما استشاروه قال لهم: انزلوا، وأشار الى حلقه، يريد أن الحكم الذبح.

قال أبو لبابة هذا محدثا عن نفسه: «لم أبارح موقفى بعد إفضائى لهم بما قلت حتى أدركت أنى خنت الله ورسوله». وما كان منه إلا أن رجع من فوره الى المدينة ولم يقابل النبي خجلا منه، وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد، آخذا على نفسه أن لا يزال موثقا فيها حتى يقضى الله فيه بأمره. وسأل عنه النبي فأخبر بما كان منه فقال: أما لو جاءنى لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضى الله فيه.

لم يسع بنى قريظة إلا النزول على حكم رسول الله، فأمر بتكتيف الرجال. فجاءه رجال من بنى الأوس حلفاؤهم فى الجاهلية، وسألوه أن يعاملهم كما عامل إخوانهم بنى قينقاع. فقال لهم: ألا يرضيكم أن نحكّم فيهم واحدا منكم؟ فقالوا نعم، واختاروا زعيمهم سعد بن معاذ. وأمر النبي باحضاره، وكان جريحا، فحمل على حمار وحُفّ به جماعة من قومه كانوا طول الطريق يرجونه أن يترفق بهم.

فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال له : احكم فيهم يا سعد . فقال : أحكم أن يقتل رجالهم وتُسبي نساؤهم وذراريهم . فنُفِّذ هذا الحكم فيهم . ولم يبق بعد هؤلاء مجاور للمسلمين من اليهود غير بقية من كبارهم بخيبر .

أما أبو لبابة الذي أوثق نفسه في سارية المسجد ، فما زال على تلك الحال حتى نزل فيه قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » حُلّ وثاقه واستراح قلبه .

(سرية القُرْطاء) : طائفة من بني بكر كانوا ينزلون بناحية ضَرِيَّة وهي على بعد سبع ليال من المدينة في طريق البصرة . أمر النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة أن يغير عليهم في ثلاثين مقاتلا . ففعل وقتل منهم عشرة وقيل عشرين ، واستاق ما كان معهم من الماشية وهي مائة وخمسون بعيرا وثلاثة آلاف شاة .

واتفق ورجال هـذه السرية عائدون ، أن صادفوا ثمامة بن أثال من رجالات بني حنيفة فأسروه ، وهم لا يعرفون من هو ، وقدموا به على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي ، وأمر به فربط الى سارية من سوارى المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم . ثم أقبل عليه بعد الصلاة وقال له : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال : خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد مالا فسل تعط منه ماشئت . فتركه حتى كان الغد . ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ فأعاد عليه ماقاله أمس ، فتركه حتى بعد الغد ، ثم عاد اليه فسأله كما فعل أولا وثانيا . فقال ثمامة : عندي ما قلت لك . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم باطلاق سراحه . فخرج الى نخـل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم عاد الى المسجد معلنا إسلامه ، فبشره النبي بخيري الدنيا والآخرة . فشخص الى مكة ليعتمر . فلما سمعه المشركون ينفي الشريك لله ، قال له قائل : صبأت عن دينك ؟ فقال : لا ولـكني أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسوله ؛ ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسـلم . وكان أهـل مكة في حاجة الى استيراد حنطتهم من اليمامة بلد ثمامة ، فخشوا إن هم قتلوه أن يقاطعهم أهل بلده فتصيبهم مجاعة . ورأوا أن يكتبوا الى رسول الله أن يأذن لثمامة في عدم حبس حنطة اليمامة عنهم . فـكتب اليه النبي أن يخلي بينهم وبين حاجتهم منها . وهذا من الصفات العالية التي تؤثر عنه صلى الله عليه وسلم ، فان قبوله إمداد أعدائه بما يقوتهم مع تمكنه من إجاعتهم وتضييق الخناق عليهم ، يدل دلالة صريحة على أنه يرى أن للنضال آدابا تجب مراعاتها ، وأن للانسانية حقوقا فوق جميع الاعتبارات ينبغي الوفاء بها . وسلاح إجاعة الأعداء لتضييق المنادح عليهم مشروعة ، ولـكن والحرب قائمة ، أما والسلام ضارب أطنابه ، فلا تصح مهما كانت درجة التوتر في العلاقات بين الفريقين .

غزوة بنى لحيان :

بنو لحيان قبيل من العرب كانوا قد قتلوا عاصم بن ثابت ورجالا معه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كان ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة سنحت فرصة للاقتصاص منهم ، فأمر بعض أصحابه بالاستعداد للحرب ، وخرج فى مائتين منهم قاصدا بنى لحيان . فلما بلغهم الخبر تفرقوا فى الجبال . فأقام النبي بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يعثرون بأحد منهم ، فرجع الى المدينة .

غزوة الغابة :

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون لَقْحة ترعى بالغابة (١) فأغار عليها مغير يدعى عيينة بن حصن فى أربعين راكبا واقتادها . فأبلغ هذا الخبر الى النبي سلمة بن الاكوع ، وكان عدّاء ومن مهرة الرماة . فأمره أن يتصل بالقوم ويشغلهم بالنبل حتى يلحق بهم . فأدركهم سلمة فى الطريق فأخذ يشغلهم بالنبل . فكانوا يركضون خيولهم ليقبضوا عليه فيفوتها ، فاذا كفوا عنه عاد لرميهم ، حتى اضطرهم لإلقاء كثير مما كان معهم من الرماح والأبراد ليخففوا أثقالهم ، فيسهل إفلاتهم من جنود المسلمين .

فى هذه الأثناء ندب النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه للخروج معه ، فدفع لواءه للمقداد بن الأسود وأمره بالخروج ولحق به الفرسان ، فأدركوا مؤخرة العدو ، فحدثت مناوشة قتل فيها مسلم ومشركان ، واستنقذ المسلمون أكثر اللقاح ، وهرب أوائل القوم بالبقية .

فطلب سلمة بن الاكوع الى النبي أن يرسله فى جماعة ليدرك الهاربين ويأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم . فقال له صلى الله عليه وسلم : « قد ملكتَ فأسجِح » أى قد غلبت فأحسن العفو . ثم رجع بعد خمس ليال .

إحدى عشرة سرية :

(أولاها) — أن بنى أسد كانوا يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل اليهم النبي صلى الله عليه وسلم عكّاشة بن محصن فى أربعين راكبا ليقاتلهم . فلما بلغهم الخبر هربوا ، فاستاق المسلمون ما وجدوه من نَعَم العدو وكانت مائة بعير ، وعادوا بها الى المدينة .

و (ثانيتها) — أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أن المقيمين بذى القصة (٢) يريدون الإغارة على ماشية المسلمين التى ترعى بالهيفاء (٣) فبعث إليهم محمد بن مسلمة فى عشرة من المقاتلة . فلما وصلوا كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان المشركون قد علموا بخبرهم وكمنوا لهم . فلما

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . والغابة : موضع قريب من المدينة .

(٢) ذو القصة : موضع على بعد ٢٤ ميلا من المدينة . (٣) والهيفاء : موضع آخر قرب المدينة .

ناموا أخذ الأعداء يرمونهم بالنبل، فتواثبوا الى أسلحتهم ولـكن بعد ما فات الوقت، فقتلوا كلهم إلا قائدهم. فأرسل النبي إليهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ليعاقبهم على ما فعلوا. فلما بلغ ديارهم وجدهم قد هربوا، فاستاق أنعامهم ورجع.

و (ثالثتها) – أن بنى سليم كانوا يعاكسون الذين تحزبوا مع المسلمين فى غزوة الخندق عند ما كانوا يمرون بديارهم. فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ليقاتلهم. فلما بلغ أرضهم وجدهم قد فروا. فأخذ المسلمون ما عثروا عليه من أنعامهم وشائهم، ووجدوا رجالا فأسروهم وعادوا الى المدينة.

و (رابعتها) — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نمى إليه أن قافلة تجارية أقبلت من الشام تريد مكة، فندب لاعتراضها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين رجلا، فاستولى عليها وأسر رجالها، وكان فيهم أبو العاص بن الربيع وهو من رجالات قريش، زوج زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت قد هاجرت الى المدينة وتركت زوجها هذا مشركا، فاستجار بها بعد أسره، فأجارته وأعلنت ذلك. فقال رسول الله: « المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجرتِ ». ورد على زوجها حريته وماله. فرجع الى مكة ثم عاد الى المدينة مسلما، فرد عليه رسول الله زوجته زينب.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: « يجير عليهم أدناهم » تقرير لمبدأ المساواة لم يكن معروفا لا عند عرب الجاهلية، ولا عند اليونانيين ولا الرومانيين ممن بلغوا فى القدم درجات عالية فى المدنية. فقد كان لا يجير عندهم إلا كبار الرجال ذوو الجاه والمكانة المالية؛ أما أدنى القوم فقد كان لا يأبه بهم أحد، بل كان أهل الطبقة الدنيا فى المدنية الرومانية يدخلون فى حماية السراة، حتى لا يكونوا عرضة للعدوان وإلا بطش بهم الأقوياء.

و (خامستها) — أن رسول الله بلغه أن بنى ثعلبة، الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة كما أوردناه فى تاريخ السرية الثانية هنا، يقيمون على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من المدينة، فوجه إليهم زيد بن حارثة فى خمسة عشر مقاتلا للثأر منهم، فهربوا من وجه السرية، فاستولى المسلمون على أنعامهم وشائهم ورجعوا الى المدينة.

و (سادستها) — أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل زيد بن حارثة ليشن على بنى فزارة غارة عقابا لهم على ما تعرضوا لزيد المذكور وهو آيب من الشام بتجارة وانتهبوا ما معه. فقصد القوم فى وادى القرى وهو موضع شمال المدينة. فأحاط بالقوم برجاله وقتل منهم رجالا كثيرين.

و (سابعتها) — أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عبد الرحمن بن عوف فى سبعمائة من المقاتلة، لدعوة بنى كلب الى الاسلام، وكانوا فى دومة الجندل، وهى قرى فيها حصن على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة، وتقع على بعد خمس ليال من دمشق. وقبل أن يسير الجيش أوصاهم قائلا:

« اغزوا جميعا فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلّوا (١) ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » .

فلما حلوا بديار القوم دعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ، وفى الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ ابن عمرو وكان على النصرانية ، وأسلم معه كثيرون من قومه ، ورضى الباقون أن يدفعوا الجزية باعتبار أنهم من أهل الكتاب .

و (ثامنتها) ـ أن رسول الله أرسل على بن أبى طالب فى مائة مقاتل لمحاربة بنى سعد بن بكر بفدك (٢) لأنه اتصل به أنهم على وشك الاتفاق مع يهود خيبر لمقاتلة المسلمين . فاتفق لهم أن عثروا بالطريق على جاسوس لهم ، فأمنوه على نفسه فى مقابل دلالتهم على موضع القوم ، فدلهم عليه ، فأغار المسلمون على ماشية القوم واستاقوها الى المدينة ، وكانت خمسمائة بعير وألفى شاة .

و (تاسعتها) ـ أنه لما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك وأربعة رجال معه لقتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق زعيم يهود خيبر ، وكان لغناه ومكانه من قومه كثير التأليب على المسلمين ، ونجح ابن عتيك فى قتله بعد أن دخل فى حصنه بحيلة توصل بها اليه ، وولى اليهود أمرهم أسير بن رزام ، وجّه رسول الله من يأتيه بخبر القوم ، فعلم أن هذا الزعيم الجديد ليهود خيبر يعمل على الاتفاق مع بنى غطفان للثأر من المسلمين . فبعث النبى اليه بعبد الله بن رواحة فى ثلاثين من رجاله ليستميلوه الى المسالمة .

فلما قدم هذا الوفد خيبر عرضوا على أسير بن رزام أن يقدَم معهم الى المدينة ويترك ما عزم عليه من الخصومة ، فيعترف به النبى صلى الله عليه وسلم رئيسا لخيبر ، ويزول ما بين الطرفين من الجفاء . فقبل أسير بن رزام هذا العرض وخرج فى ثلاثين من رجاله ، فجعل كل واحد منهم رديفا لواحد من المسلمين ، وجعل نفسه رديفا لعبد الله بن رواحة ، فبينا هو بالطريق ندم على خروجه وأهوى بيده الى سيف مردفه ليستله ، فجذبه منه وأسرع فى النزول وضربه على فخذه فقطعها ، وتولى كل مسلم رديفه فقتله .

و (عاشرتها) ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد قدم عليه جماعة من بنى عكل وعرينة فتظاهروا بالدخول فى الاسلام وكانوا مصابين بأعراض سوء التغذى من رقة حالهم ، فتعطف عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فأمر راعيا له أن يعطيهم حاجتهم من ألبان بعض إبله ، وأشار عليهم أن ينتقلوا الى مرعى تلك الابل حتى تعود اليهم صحتهم ، فصدعوا بالأمر ؛ ولما آنسوا فى أنفسهم القوة بعد شفائهم قتلوا الراعى ومثلوا به وأخذوا الابل وفروا . فأمر رسول الله

(١) غل كذا أخذه خفية ودسه فى متاعه (٢) قرية بينها وبين المدينة ست ليال .

كرز بن جابر الفهرى أن يأخذ عشرين فارسا ويلحق بهم ويقتادهم . فلما جيء بهم اليه أمر أن يمثَّل بهم كما مثلوا بالراعى ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، وألقوا خارج المدينة حتى ماتوا .

أما ما ورد من النهى عن التمثيل بالأعداء فقد حدث بعد هذه الحادثة .

و(حادية عاشرتها) ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل عمرو بن أمية الضمرى وكان رجلا فاتكا فى الجاهلية ، وأصحبه بمعين له ، ليقتلا أبا سفيان بن حرب غيلة ، جزاء له على إرساله رجلا ليقتل النبى غيلة .

فلما شخص عمرو بن أمية الى مكة توجه ورفيقه ليطوفا بالبيت ، فعرف رجل من المشركين عمرا وأذاع الخبر ، فرأى عمرو أن ينجو بنفسه قبل أن يقبض عليه ، فرجع هو وشريكه الى المدينة وبقى أبو سفيان حيا حتى أسلم عندما شرع رسول الله يفتح مكة .

أما خبر الرجل الذى كان أرسله لاغتيال النبى صلى الله عليه وسلم ، فان أبا سفيان قال يوما وهو ينادى قومه : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غيلة لنستريح منه ؟ فنهض اليه رجل وتعهد له بذلك . فأعطاه راحلة ونفقة . فلما وصل الى المدينة كان النبى بمسجد بنى عبد الأشهل فذهب الى ذلك المسجد ، ولما وقعت عينه على رسول الله قصده متظاهرا بالطاعة وانحنى عليه ، فخشى أسيد بن حضير أن يكون قد أسر شرا فجذبه من إزاره ، فسقط الخنجر الذى أعده له ، فافتضح أمره ، وسأله النبى عن الحامل له على سوء نيته ، فصدقه وأسلم من ساعته .

***

نظرة على ما سبق :

إننا لم نعمل فى كل ما مر فى هذا الفصل إلا سرد الحوادث التى وقعت فى السنتين الخامسة والسادسة للهجرة ، وكنا نستطيع أن نقف عند الحد الذى انتهينا اليه لنستأنف بقية السيرة المحمدية فى الأعداد التالية ؛ ولكننا شعرنا أن القارئ سيشعر بشيء من الحيرة عندما يقرأ ما عومل به المستسلمون من بنى قريظة من الشدة ، وما حكم به على الجماعة من عكل وعرينة من التمثيل ، جزاء قتلهم رجلا واحدا وتمثيلهم به ، وما كان يُرسَل من أهل الجرأة والفتك لقتل بعض رؤساء الخصوم غيلة ؛ فلهذا رأينا أن التعقيب على هذه الحوادث واجب .

جاء الاسلام لينشر إصلاحا يشمل الأديان والأصول والمبادئ التى كانت تقود الجماعات الانسانية وأُخرجت عن حدودها ؛ وليبثَّ أصول ومبادئ أدبية جديدة لا بد منها لتكميل أدوات التطور الاجتماعى ، تكميلا لا تحتاج بعده لأدوات أخرى ؛ واقتضى هذا الاصلاح أن تقام له دولة تمثله وتدافع عنه . لأنه ثبت أن كل إصلاح دينى أو اجتماعى لا تتقمص روحه

دولة ، تنافح العوامل الحائلة دونه ، يضمحل ويزول كأن لم يكن . والدليل المحسوس على هذا أنه لم يوجد ولا يوجد دين أو نظام مدنى قام بدون دولة . وهذه الديانة النصرانية ظلت فكرة مضطهدة مدة ثلاثة قرون متوالية حتى قامت لها دولة ، سُفكت فى سبيلها دماء ، وهُدمت هياكل وبِيَع ، فقويت واشتدت ونشرت رواقها على أوروبا برمتها ، وعلى بقاع كثيرة من القارات الأخرى .

فكان لا بد للاسلام من أن يقيم لنفسه دولة ؛ والدولة عمل إنسانى يقتضى ككل عمل إنسانى أن يناسب البيئة التى يعمل فيها ، والنفوس التى يحتك بها ، ويحطم العقبات التى تقوم دونه .

وهذا العمل الانسانى فى البيئات التى لم تصل بعد الى أرفع درجات السمو الأدبى لا يجدى فيه القيام على المُثُل العليا إلا بعد أن يصل الى غايته القصوى ؛ أما وهو لا يزال فى دور التكوين فلا بد للقائم به من أن يتنزل الى استخدام الأساليب التى لا تتأثر النفوس الراهنة إلا بها . وإذا كان من النفوس من تكفيها الاشارة ، ومنها من لا يؤثر فيها إلا السوط يلهب ظهور أصحابها ، فمن الجماعات ما تجزئ فى زجرها المثل العليا من العدالة ، ومنها ما تفسدها هذه المثل العليا نفسها ، ولا ينفع معها إلا معاملتها بمثل ما تعمل لتقتاد الى ما يصلحها .

إذا أنصف خصوم الاسلام وجب عليهم أن يعجبوا كيف لم تشع هذه المعاملة الشديدة فى الدور الأول من تأسيس الدولة الاسلامية ، وتكون هى الأسلوب العملى لتقويم أمة جاهلية من الطراز المتحجر ، لا أن تقتصر على حادثتين أو ثلاثة فيه ، فان معالجة الجماعات التى فسدت نفوسها بالعيش آلافا من السنين على حالة البداوة ، وقست قلوبها حتى صارت كالصخور أو أشد قسوة ، تضطر أرق المصلحين لها أن يعمدوا كارهين الى وسائل توائم ما هى عليه من التحجر المستعصى ، وخاصة إذا كان المراد نقلها عما هى عليه ، خلافا لسنن التطور ، فى سنين معدودة .

ليس يدرك صحة ما نقول إلا من ابتلى باصلاح رجل واحد ممن نذكر ، ورأى كيف تعجز جميع وسائل التقويم المعروفة فى علاجه ، وكيف يُلقى المنطق سلاحه ، وتتحطم نصال الأدلة الماضية دون إصراره وعناده .

على أن حادثتين أو ثلاثا مما لاحظه الخصوم واقتضتها أحوال خاصة ، لا تكدر صفو تاريخ حافل بآيات ، أصغر واحدة منها تنحنى أمامها الرءوس إجلالا ، وتفيض منها القلوب إيمانا ، وتزداد بها العقول عرفانا .

محمد فريد وجدى

السُّنَّة

مثل من فهم الصحابة فى كتاب الله

عن صالح عن ابن شهاب قال : « أخبرنى عُروة بن الزبير عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل » قال : قلت : أكُذِبوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذَّبوهم فما هو بالظن . قالت : أجلْ لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : وظنوا أنهم قد كُذِبوا ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ! قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك » . رواه البخارى فى كتاب التفسير .

(١) معنى هذا الحديث أن عروة بن الزبير سأل خالته السيدة عائشة رضى الله عنهما عن معنى قوله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا » الآية . والذى أشكل على عروة فى هذه الآية أمران : أحدهما : يأس الرسل من نصر الله تعالى مع أن الله تعالى قد وعد الرسل بالنصر ؛ ثانيهما : ظن الرسل أنهم قد كُذِبوا (بالتخفيف) أى أُخبروا بالكذب ، (يقال كُذِبَ الرجل بضم الكاف وتخفيف الذال إذا أخبره غيره بالكذب) مع أن ذلك لا يجوز فى حق الرسل عليهم السلام ؛ فأجابته السيدة عائشة بأن كُذِّبوا مثقلة لا مخففة . فالآية وظنوا أنهم قد كُذِّبوا بمعنى أن قومهم كذبوهم ، فلا ارتباط لإخبار الله تعالى إياهم بهذا ؛ ولكن عروة لم يقتنع بهذه الإجابة ، فقال لها : إن الرسل قد استيقنوا بأن قومهم كذَّبوهم ، والقرآن يقول : وظنوا أنهم قد كذبهم قومهم ، فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ فقالت له : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقال لها عروة : إذا استيقنوا بأن قومهم قد كذَّبوهم فلا يكون للآية معنى إلا أن الرسل قد ظنوا أنهم قد أخبروا بالكذب ، لأنه لا واسطة بين هذين المعنيين ؛ فالمسألة إما أن تقرأ الآية بتشديد الذال ويكون المعنى أن قومهم كذبوهم ، وهذا لا يتناسب مع قوله : وظنوا أنهم قد كذبوا ، لأن قومهم قد كذبوهم يقينا ؛ وإما أن تقرأ بتخفيف الذال ويكون المعنى أن الرسل قد ظنوا أن الخبر الذى وعدوا فيه بالنصر قد كذِبوا فيه . فقالت له

السيدة عائشة : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ! فقال لها عروة : فما معنى هذه الآية حينئذ ؟ فقالت له : هم أتباع الرسل ، والمعنى أن أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم الاضطهاد من أعدائهم وتأخر النصر الذى وعدوا به ، يئسوا من انتصارهم على من كذّبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

وحاصل ما تريده السيدة عائشة رضى الله عنها من هذا الجواب أن تقول : إن الذين استيقنوا بتكذيب الرسل هم غير أتباعهم ؛ والآية إنما يراد بها أتباع الرسل الذين آمنوا بهم ، فهؤلاء الأتباع الذين وعدوا على لسان الرسل بالنصر على خصومهم الكافرين قد ظنوا أن الرسل قد كذَبوهم فيما وعدوهم به من النصر ؛ وقوله : « استيأس الرسل » (أى يئسوا ، فالسين والتاء زائدتان للدلالة على شدة اليأس) ؛ ومعناه أن الرسل قد يئسوا من إيمان من كذّبهم من قومهم ؛ فحالة الرسل بإزاء ذلك تكون حرجة كل الحرج ، لأنهم بين ظن أتباعهم الكذب فى خبرهم ، وبين تمادى الكافرين من غير أتباعهم المكذبين بهم ؛ وعند ذلك يجىء النصر الذى وعدهم الله به . ولعل حكمة هذا التأخير هو امتحان المؤمنين الذين صدقوا برسلهم ، وتمرينهم على احتمال الشدائد والمشقات ، ليضاعف الله لهم الأجر ، ويزيد فى سرورهم بالنصر على أعدائهم الذين آذوهم وآذوا رسلهم ، فإنه سبحانه قد يبتلى المؤمنين بالمصائب الدنيوية حتى يعلم الصابرين منهم فيجزيهم على الصبر أحسن الجزاء .

وقد ورد فى كثير من القرآن الكريم ما يؤيد ذلك المعنى : قال تعالى : « ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » ، وقال : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين » الى غير ذلك .

هذا الذى فهمته السيدة عائشة رضى الله عنها من الآية الكريمة ، هو الظاهر المتبادر ، ولا يرد عليه شىء . إلا أن ظاهر هذا إنكار القراءة الواردة بتخفيف الذال من كذبوا ، وهى قراءة متواترة ، قرأ بها حفص ، وهى قراءة ابن عباس وعلى كرم الله وجهه وابن مسعود ومجاهد وطلحة والأعمش ، وبها قرأ الكوفيون ؛ وعلى هذا فماذا يكون التأويل ؟ وقد عرفت أن كذبوا بضم الكاف وكسر الذال مخففة معناه أنهم أُخبروا بالكذب ، وهو فعل مبنى للمجهول ، فمن الذى أكذبهم أو أخبرهم بالكذب ؟ لا ريب فى أن الذى أخبرهم بذلك عن الله عز وجل هو الوحى ، وهو معصوم عن الخطأ فضلا عن الكذب بلا مراء ، فليس من المعقول أن الرسل تظن أن الوحى قد أخبرهم عن الله كذبا ؛ وظنٌ ذلك محال على الرسل ، لأنهم بذلك الظن يهدمون الشريعة التى جاءوا بها من أساسها ؛ فان من أهم صفات الرسل التى يجب اعتقادها العصمة عن الخطإ فى كل ما يبلغ اليهم من ربهم ؛ ولذا قد أنكر المحققون حديث الغرانيق المشهور ، وقالوا إنه موضوع ، لعصمة الرسل عن الخطإ فيما يبلغونه عن الله ؛ وليس من المعقول

أيضا أن يقدر الفاعل : أنفسهم أو رجاؤهم فيقال: كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بالنصر ، أو كذبهم رجاؤهم النصر ، لأن هذا إنما ينفع إذا لم يكن النصر قد أوحى به اليهم ، ومتى أوحى به اليهم فكيف تكذبهم أنفسهم الوحى الذى يجيئهم من عند الله ؟ ومن الصعب جدا ما روى عن بعضهم من أن ابن عباس قال : كذبوا بمعنى أخلفوا وكانوا بشرا . فان هذا لا يصح أن يقوله ذلك الامام الجليل ، فان معنى ذلك أن الرسل ظنوا أن الله تعالى قد أخلفهم وعده بالنصر . وهل هذا يليق بالرسل سواء قلنا إن الظن بمعناه المشهور وهو إدراك الطرف الراجح ، أو بمعنى الشك أو الوهم ؟ لا ريب أن مقام الرسل فوق هذا . ولهذا ذكره الزمخشرى بعبارة تدل على إنكاره فقال : إن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس فى النفس ، وحديث النفس لا يترتب عليه شيء من المؤاخذة لأنه من مقتضى الطبيعة البشرية ؛ أما الظن وهو ترجيح أحد الطرفين فلا يليق بالمسلم فضلا عن الرسول . وهذا حسن لا شك فيه ، لأنه لم يرد عن ابن عباس أنه فسر بهذا التفسير من طريق صحيح ، بل يستحيل على ابن عباس أن يجوز على الرسول أن نفسه تحدثه بأن الله يخالف وعده ؛ ولا بد أن يكون المعنى الذى ذكرته السيدة عائشة هو الذى أراده ابن عباس . فقوله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا » بتخفيف الذال ، معناه : حتى إذا يئس الرسل من إيمان الكافرين ، وظن أتباعهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر من عند الله . وقد روى الطبرى هذا المعنى عن سعيد بن جبير فقال : يئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل اليهم من أتباعهم أن الرسل كذبوا . وهذا هو الذى يليق بابن عباس رضى الله عنهما .

بقى إشكال آخر ، وهو أن ظاهر الكلام يفيد أن عائشة تنكر القراءة بتخفيف الذال مع أنها من القراءات المتواترة . وقد أجاب بعضهم بأن عائشة لم تنكر القراءة وإنما أنكرت التأويل الذى ترتب عليها ، فإن قراءة كذبوا بالتخفيف تحتمل المعنى الذى لا يليق فهمه بالرسل ، بخلاف قراءتها بالتشديد فانها لا تحتمل . فغرض السيدة عائشة من ردها على عروة تفهيمه أن الرسل يئسوا من إيمان قومهم ، وأن المؤمنين من قومهم ظنوا أن الرسل قد كذبوهم . وهذا المعنى تدل عليه القراءة بالتشديد حتما ؛ أما القراءة بالتخفيف فإنها توهم أن الرسل يئسوا من وعد ربهم وظنوا أن الله قد كذبهم وعده . فإذا انتفى هذا الإيهام وأولت الآية على الوجه الذى ذكرته فانها لا تنكرها . وهذا هو اللائق بمقام السيدة عائشة التى كانت مرجعا لكبار الصحابة فى فهم كلام الله ورسوله فى كل ما يشكل ويخفى . أما الجواب بأنها لم تكن تعلم بهذه القراءة المتواترة بين المسلمين يومئذ فانه بعيد كل البعد ؟

عبد الرحمن الجزيرى

التصوف والمتصوفون

— ١ —

كنا قد هممنا منذ نحو ثلاثة أعوام بنشر بحوث فى نشأة الحركة التصوفية وآراء المتصوفين النظرية ومالها من منزلة بين صفوف أعلام الفكر البشرى ، ولكننا — لأمرما — آثرنا أن نعدل إذ ذاك عن متابعة هذه السلسلة بعد أن نشرنا منها فصلين فى مجلد سنة ١٣٥٧ من هذه المجلة ؛ غير أن كثيراً من مثقفى القراء قد ألحوا علينا أن نعنى فى بحوثنا بحركة التصوف الاسلامى ، مستندين فى طلبهم هذا بأنه لا ينبغى أن نغفل هذه الناحية الهامة من نواحى الفكر فى النهضة الاسلامية ، فلم يسعنا إلا أن نعود الى هذه البحوث آملين أن نوفق الى الإلمام بها بقدر ما تسمح به الظروف . ولما كنا قد أوجزنا — فى الفصل الأول الذى نشرناه من هذه الفصول — الحديث عن نشأة التصوف وكيف أنه كان فى أول الأمر عمليا ثم صار نظريا ، وعن مأتى كلمة « صوفية » وما ذكر فى ذلك من آراء القدماء والمحدثين ، فقد رأينا أن نكتفى بما نشرناه عن هذا كله فى حينه . والآن اليك ما بعد تلك التمهيدات :

نبذة من تاريخهم :

كان المتصوفة فى أول نشأتهم متفرقين ، ولكنهم لم يلبثوا أن شعروا بالحاجة الى اجتماعهم وتأليفهم وحدة قوية ، فتعارفوا واجتمعوا فريقين : أحدهما فى البصرة ، وثانيهما فى الكوفة ، وكوّن كل فريق منهما مدرسة لها تعاليمها وآراؤها التى تتفق مع ميولها الفطرية .

كان البصريون من التميميين المنعطفين بفطرتهم الى الواقعية والنقد الجاف ووضع القواعد التى يندر فيها الاستثناء وتحديد النحو ، وكبح جماح الشعر فى دائرة الحقيقة بقدر الامكان ؛ وكانت آراؤهم سنية مع النزعة الى حرية الفرد من آراء القدرية ؛ وكانوا يقولون بوجوب استكناه بواطن الأحاديث وبرفض الأخذ بظواهرها . ولهذا كان من الطبيعى أن يحتفظ متنسكوها بشىء من هذه الصفات ، وهذا هو الذى حدث ؛ فكان رئيس نساكها الحسن البصرى المتوفى فى سنة ١١٠ هـ — سنة ٧٢٨ م زاهدا من الطراز الأول ، وناقدا عميقا ، ومنطقيا سليم العقل وقوى الحجة بهيئة تسترعى الانتباه ، وسنّيا معقولا ، ومن أنصار حرية الفرد فيما يزعم كثير من زعماء المعتزلة . ومن نساك المدينة أيضا : مالك بن دينار ، وفضل الرقاشى ، ورباح بن عمر القيسى ، وصالح المرى ، وعبد الواحد بن زيد الذى أسس جماعة النساك الشهيرة فى مدينة عبادان ، والمتوفى فى سنة ١٧٧ هـ وسنة ٧٩٣ م .

أما الكوفيون فقد كانوا بطونا يمنية تنزع نحو المثالية العليا فى كل شىء . كان شعرهم

أفلاطونيا دون أن يعرفوا أفلاطون ، وخيالهم متطلعا نحو الكواكب ؛ وكانوا يقولون بوجوب الأخذ بظاهر الحديث ، ويتشيعون لعلى ، ويدينون بمبادئ المرجئة . وقد ظهرت هذه النزعات كلها فى نساكهم كذلك ، فربيع بن خيثم المتوفى فى سنة ٦٧ هـ — سنة ٦٨٦ م ، وأبو اسرائيل الملائى المتوفى فى سنة ١٤٠ هـ — ٧٥٧ م ، وجابر بن حيان ، وكليب الصيداوى ، ومنصور بن عمار ، وأبو العتاهية ، وعابدك ؛ كل أولئك آيات ناصعة على ما أسلفناه من اختلاف نساك الكوفة عن نساك البصرة فى نزعاتهم .

وهؤلاء الثلاثة الأخيرون ذهبوا فى أواخر حياتهم الى بغداد التى كانت قد صارت مركز الحركة التنسكية كما هى مركز الحركة العلمية عامة ، والتى كانت حلقات المحاضرات التنسكية قد بدأت تنعقد فى قاعاتها منذ سنة ٢٥٠ هـ وهو نفس العصر الذى انفجرت فيه المعارك الصريحة بين النساك والمتكلمين ، وحقق فيه فى قضية ذى النون الناسك المصرى ، ثم فى قضيتى النورى وأبى حمزة فيما بين سنتى ٢٦٢ — ٢٦٩ هـ ، ثم فى قضية الحلاج فى سنة ٣٠١ هـ .

لم يكن الأولون من النساك يتوقعون أن تنشب الحرب بينهم وبين الفقهاء يوما ما ، وأن يدس لهم أولئك عند الخلفاء دسا ينتهى بقتل بعضهم واضطهاد البعض الآخر .

وفى الحق أنه لم يكد المتصوفون يعلنون أنهم يحاسبون القلوب والضمائر ، وينشغلون بالبواطن دون الظواهر ، حتى ثارت ثائرة الفقهاء ، وهبوا يتهمونهم بالمروق عن الشريعة التى تعلن فى وضوح أنها تحكم بالظواهر والله يتولى السرائر . وليس الفقهاء وحدهم هم الذين دانوا الصوفية ، وإنما سبقهم الى ذلك القدرية والإمامية وغيرهم من الغلاة فرموهم بأنهم لا يقصدون من وراء تنسكهم إلا « الرضى » الذى يعفيهم من إجلال الأئمة الاثنى عشر ، وهذا إثم كبير .

أما المعتزلة والظاهرية ، فقد كانوا يجدون من غير المعقول الموافقة على ما تسميه الصوفية بالعشق بين الخالق والمخلوق ، لأنه نظريا يقتضى التشبيه ، وعمليا يستلزم الملامسة والحلول . وأما السنية فقد كانوا يأخذون عليهم الإفراط فى التأمل الى حد طغيانه على الأدعية الصوتية ، وكذلك ادعاؤهم وضع الروح فى حالة صلة ثابتة مع الإله تعفيها من الاشتغال بمعرفة المباح والمحظور .

غير أن هذا كله لا يمنعنا من أن نقرر هنا أن المتصوفين العمليين لم ينبذوا من حظيرة الاسلام ، بل إن أهل السنة طالما اعترفوا كثيرا من تعاليمهم الأخلاقية وأدعيتهم التقية من مؤلفات أولئك المتصوفين ، ككتابى « قوت القلوب » لأبى طالب المكى ، و « الإحياء » للغزالى(١) .

(١) انظر بحث الاستاذ ماسنيون فى صفحة ٧١٥ وما بعدها من المجلد الرابع من دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية .

نشأة فكرة الاتحاد وتطورها :

لم يكد المتنسكون يأخذون بنصيب من الحركة الفكرية العامة حتى أيقنوا بأن هذا الجدل الذى أشعل الفلاسفة والمتكلمون أواره قد عجز عن حل مشكلة الكون ، وأنه لا سبيل الى المعرفة إلا الزهد ونزع علائق المادة التى هى الغشاء الحائل بين عالم الأرض وعالم السماء . ولقد كانت هذه النزعة الى الضعف خليقة بأن تسخط القائمين على أمر الشريعة لنبوّها عن روح الاسلام الحاث على القوة والمغالبة ، ولكن ما حيلتهم وصاحب الشريعة نفسه قد أقر الزهاد على زهدهم ، بل أمر باحترامهم ؟ فلم يسعهم إلا الانحناء لما أقره النبى ، فظلوا يجلون المتنسكين حتى نزعوا الى التصوف النظرى الذى ظهرت فيه فكرتا وحدة الوجود والحلول الآتيتان من فلسفتى الهنود والاسكندريين ، واللتان كانتا السبب الأول لكل مانزل بالمتصوفين من كوارث ، كما سنشير الى ذلك فى حينه .

نشأ التصوف النظرى إذاً عندهم من فكرة وجوب ملازمة العبادة الخالصة ، وضرورة التحرر من نير الشهوات . ومجمل ذلك أنهم أيقنوا بأن العبادة المخلصة المتحمسة توجد فى النفس ما يسميه المتصوفون بـ « الفوائد » وبأن علم القلوب ينشئ فيها المعرفة التى تقتضى ضرورة انسجام الإرادة مع الفيض الممنوح .

وعندهم أن علم القلوب هو الذى يرسم طريق السفر نحو الإله ، ويحدد مقامات هذا الطريق وأحواله . ولا تخرج هذه المقامات وتلك الأحوال عن فضائل مكتسبة وأفضال ممنوحة . وقد اختلف المتصوفة فى تحديد المقامات والأحوال ، ولكنها لا تخرج عند الجميع عن أمثال هذه المعانى : الصبر ، التوبة ، التوكل ، الرضى .

وغاية هذا السفر عند المتصوفة هى الوصول — بعد التخلص من علائق المادة وغواشى الحس — الى الإله الحق الذى تصبو اليه الأرواح ؛ ولكن لما لم يمكنهم وضع حد لا يتنافى مع العقيدة لهذه الحالة الخاصة ، فقد لجأوا الى تعبيرات المتكلمين المعروفة فى عصرهم ، فأدخل شقيق الى التصوف « التوكل » ، وأدخل ذو النون والبسطامى « الفناء » ، وابن كرام وذو النون « المعرفة » ، وأدخل الخراز « عين الجمع » ، والترمذى « الولاية » ؛ ولكنهم أساؤا استعمال هذه الكلمات كما يرى الأستاذ « ماسينيون » . وفوق ذلك فانهم بعملهم هذا أسقطوا التنسك الاسلامى فى فخ « ميتافيزيكية » المتكلمين المادية المؤسسة على نظرية « الذر » الديموكريتى المتخبط بعماء ، والمقود بالمصادفة المحضة ، والتى تقتضى ضرورة جحود خلود النفس ، بل جحود روحانيتها ، والتى خلطت بين وحدة الموجود والوحدة العددية ؛ وهذا يوضح كيف أن النظريات الصوفية لم تكد تنشأ حتى وجد فيها الاستعداد الكامل للهوى فى الحلولية .

غير أنه لم يكد القرن الرابع يحل حتى كانت الفلسفة « الهيلينية » قد عملت عملها فى البيئات الاسلامية ، فسمح ما استحدثته فى لغة العـرب من تعبيرات ميتافيزيكية مضبوطة للصوفية بأن يستولوا على ما يحتاجون اليه فى نظرياتهم ، فصرحوا بلا مادية الروح ، وتحدثوا عن الفكر العامة والعلل والمعلولات وما شاكل ذلك . ولـكن لما كانت هذه المفردات الميتافيزيكية منتشرة فى مختلف المؤلفات الفلسفية ، وممتزجة بالمثاليات الأفلاطونية ، والانبثاقات الأفلوطينية ، فقد لجأ المتصوفون الى البحث عنها فى هـذه المطولات ، فتأثروا بنظرياتها أثناء بحثهم فيها . وقد ظهر هذا الأثر على الأخص فى آرائهم عن الصلة الإلهية حيث انقسمت الى ثلاثة أقسام :

الأول : « اتحادية » ابن مسرّا والفارابى وإخوان الصفاء . ومجملها انطباع العقل الفعال الذى هو الفيض الإلهى فى النفس السلبية .

والثانى : « إشراقية » السهروردى الحلبى ، والدوّانى ، وصدر الدين الشيرازى ، وهى تتلخص فى تجوهر الروح .

والثالث : « وصولية » ابن سينا وابن طفيل وابن سبعين التى تقرر أن النفس بوصولها الى الإله تدرك وجودها التام الذى لا يقبل التبدل .

أخذت هذه النظريات الثلاث تمتزج وتتطور حتى انتهت الى وحدة الوجود المغالية التى أطلق عليهم خصومهم من أجلها اسم « الوحدتية » ، والتى سنعرض لها عند كبار الصوفية ؟

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

العناية بالادب

قال حماد الراوية : دعانى أبو مسلم ليلا فراعنى ذلك ، فلما دخلت عليه سألنى عن شعر فيه (أوتاد) . قلت : من قائله ؟ قال لا أدرى . قلت : قائله جاهلى أم إسلامى ؟ قال لا أدرى . فبدر الى وهمى شعر الأفوه الأزدى :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا له عمـد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فان تجمع أوتاد وأعمـدة ... يوما فقد بلغوا الأمر الذى كادوا

فقلت : هو للأفوه الأزدى ، وأنشدته الأبيات . فقال : صدقت ، انصرف إذا شئت . فلما خرجت لحقنى رجاله ببدرة من المال ، فعرضت عليهم شيئا منه فأبوا .

حياة رجالات الاسلام

أبو بكر الصديق

– ٣ –

انطوى أبو بكر على الاسلام ، لأنه رأى فى مرآة آدابه حقيقة نفسه ، ولقى فى سماحته عناصر فطرته ؛ وانطوى الاسلام على أبى بكر ، لأن شخصيته كانت صورة حية لأرفع تعاليمه وأسمى معانى روحانيته ، فسيط الإيمان بلحمه ودمه ، وامتزج بروحه وعقله ، فباع الصديق نفسه لله سمحا بها رضيا ، وغدت حياته فداء لرسول الله ، ولدين الله ، وغدا ماله — وما هو بقليل المال — رفدا فى سبيل الله ، وغدا أهله وولده ووطنه قربانا لرضاء الله .

أوذى رضى الله عنه حتى كادت نفسه تتلف فلم يكن له هم فى نفسه وحياته ، وإنما كان همه الأعظم فى عافية رسول الله وسلامته ، لأن فى سلامة الرسول وعافيته حياة الانسانية وتخليصها من عار الوثنية ، ورفع شأوها الى ما هيئت له من سيادة الوجود وتحرير الأفكار عند ما تبلغ رشدها ، فان يهلك أبو بكر فانما هو رجل واحد من الناس يموت كما يموت الناس ، وإن يُصَب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانما هو الحق ، والخير ، والهدى ، والنور ، والبر والرحمة ، والعدل ، والاحسان ، تمّحى من سجل الحياة فيذوى عودها ، ويجف ماؤها ، فاذا هى شجرة مصوّحة فى أرض قاحلة ، لا تثمر عاطفة من عواطف الخير ، ولا ينبت على أديمها إحساس من أحاسيس البر والاحسان .

هكذا كان أبو بكر يقدر حياته الى جانب حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهكذا أدرك أبو بكر مهمة رسول الله فى بعثته رحمة للوجود ؛ روى الزمخشرى فى كشافه : أن المشركين لما طلعوا فوق الغار أشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن تصب اليوم ذهب دين الله » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » . وفى مواهب القسطلانى : أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إن قتلت أنا فانما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة » ، فعندئذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحزن إن الله معنا » .

ولأرباب القلوب من الأصفياء هنا كلام لطيف تأنس به الأرواح فى عروجها الى منازل التقديس ، وتهش له العقول المهيأة لتلقى أسرار الوجود ؛ قال العارف شمس الدين بن اللبان :

« وتأمل قول موسى عليه السلام لبنى اسرائيل : « كلا إن معى ربى سيهدين » ؛ وقول نبينا صلى الله عليه وسلم للصديق : « إن الله معنا » ، فموسى خص بشهود المعية ولم يتعد منه الى أتباعه ، ونبينا تعدى منه الى الصديق ، ولم يقل « معى » لأنه أمد أبا بكر بنوره فشهد سر المعية ، ومن ثم سرى سر السكينة على أبى بكر ، وإلا لم يثبت تحت أعباء هذا التجلى والشهود ؛ وأين معية الربوبية فى قصة موسى عليه السلام من معية الإلهية فى قصة نبينا صلى الله عليه وسلم » ؟

ثم تأمل فى أن نبى الله صلوات الله عليه لما رأى حزن الصديق قد اشتد إشفاقا عليه ، جذب روحه الى مسارح الأنس بشهود المعية ، وقوى قلبه ببشارة « لا تحزن إن الله معنا » ليكون الخبر من الحبيب حكاية ليقين الشهود ، وكانت تحفة « ثانى اثنين » مدخرة له دون الجميع ، فهو الثانى فى الاسلام ، والثانى فى بذل النفس والعمر ، لما وقى الرسول صلى الله عليه وسلم بماله ونفسه جوزى بمواراته معه فى رمسه تخليدا لخصيصة الصديقية ، وإلى هذه الخصيصة يشير أبو محجن الثقفى فى قوله :

وسُمّيتَ صديقا وكل مهاجر سواك يسمى باسمه غير منكر
سبقت الى الإسلام والله شاهد وكنت جليسا بالعريش المشهّر
وبالغار إذ سميت بالغار صاحبا وكنت رفيقا للنبى المطهر

وإليها يشير ما يرويه أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب : أن رجلا من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى مجلس فيه القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق : والله ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من موطن إلا وعلىّ معه فيه ! فقال القاسم : يا أخى لا تحلف ، قال : هلم ، قال : بلى ، ما لا ترده ، قال الله تعالى : « ثانى اثنين إذ هما فى الغار »

وقد كان إشفاق أبى بكر رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم أبلغ وأعظم مما تتصوره الأفكار ويرسمه الخيال ، ففى قصة الهجرة أن أبا بكر رضى الله عنه لما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها الى الغار جعل طورا يمشى أمامه ، وطورا يمشى خلفه ، وطورا عن يمينه ، وطورا عن شماله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما هذا يا أبا بكر ؟ » فقال : يا رسول الله أذكر الرصيد فأحب أن أكون أمامك ، وأتخوف الطلب فاحب أن أكون خلفك ، وأحفظ الطريق يمينا وشمالا ! فقال عليه الصلاة والسلام ، إيناسا وتثبيتا للصديق : « لا بأس عليك يا أبا بكر ، الله معنا » .

ولما وصلا الى الغار أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدخله ، فقال له أبو بكر : والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخل فأسبره قبلك ! فدخل الصديق رضى الله تعالى عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقيه بنفسه ، فجعل يتلمس بيديه جوانب الغار وزواياه فى ظلمة الليل

مخافة أن يكون فيه شيء يؤذى رسول الله ، فرأى أجحارا متعددة ، فعمد الى أثوابه يقطع منها ما يسد به الأجحار ، وبقى جحر لم يجد له ما يسده ، فجلس قريبا منه وألقمه عقبه ، فجعلت الحيات والأفاعى تضربنه وتلسعنه ، ورسول الله قد نام ووضع رأسه فى حجره ، فجعلت دموعه تنحدر من شدة الألم وهو لا يتحرك ، حرصا على راحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يوقظه بعد ما لقى من جهد جهيد استبكى أبا بكر ، فقال : « نظرت الى قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وقد تقطرتا دما فاستبكيت وعلمت أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن تعود الحفا والجفوة » ولكن دموع الصديق غلبته فسقطت على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « مالك يا أبا بكر ؟ » فقال : « لدغت فداك أبى وأمى ! » فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضعها فذهب ما يجده . وفى خبر سراقة بن جعشم المدلجى أنه تعرض لرسول الله وصاحبه فى طريق هجرتهما ، فبكى أبو بكر ، وقال : يارسول الله أتينا ! فقال « كلا » ! قال سراقة : فركبت فرسي تقرّب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسى ، فسألتهما الأمان ، فأمنانى ، وقالا : أخْفِ عنا .

هذه أحاديث تنطوى عليها سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرة صاحبه الصديق الأعظم ، يقرؤها كثير من الناس عابرين ، دون أن يقفوا معها وقفة البصيرة النيرة ، والفكرة النفاذة ، والفطرة الصقيلة ، ليستوحوا منها دروس العبرة الصادقة ، والعظة البالغة ، والأسوة الفاضلة ، ولتكون لأنفسهم ضياء ، ولأرواحهم غذاء ، ولكننا نحن هنا لا نريد أن نتعجل الخطو ، لأن من أهم أمرنا فى كتابة سيرة رجالات الاسلام وبناة مجده ، أن تكون دروسا لنا ولأبنائنا من طلاب العلم فى معاهد الاسلام ، وإخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، نتعرف منها فى ريث وأناة قيم العناصر التى هيأت لأولئك العباقرة تكوين شخصياتهم العظيمة ، هذا التكوين الذى كان فى حقيقته قوة الاسلام القاهرة ، ومعجزاته الباهرة ، وروحه التى سار بها فى أرجاء الأرض فاتحا وناشرا لواء العدالة والرحمة فى ظل رجاله الغر الميامين .

فلنقف متأملين الى جانب هذه الأحاديث الصديقية نجتلى بعض أسرارها ليرى معنا شباب الاسلام أن أسلافنا لم يملكوا ناصية الحياة ، ويقيموا بناء أعظم « أمبراطورية » عرفها التاريخ فى مدى زمن هو فى أعمار الأمم والممالك كاليوم بل الساعة فى أعمار الأفراد ، بالكلام يلقى هنا وهناك ، وإنما بنوا هذا الصرح الشامخ للعظمة الاسلامية التى تطل علينا من نوافذ التاريخ بالدماء فى لبنات الفداء والتضحية ونكران الذات ، والتفانى فى سبيل العقيدة ، والإيمان بالحق إيمانا يجعل الحياة رخيصة إذا لم تكن قائمة على الحرية الفاضلة والعدالة الكاملة ، والاخلاص لله تعالى ، والثقة به ثقة تعصم النفوس من مزالق النفاق فى صورة الذوق المستعار والمجاملات الزائفة .

أحب أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حبا ملك عليه كل شىء ، لجاد بنفسه فداء لحياة رسـول الله ، وآمن به فقدر رسالته حق قدرها ، وعرف أنه رحمة مهداة للانسانية ليخرجها من الظلمات الى النور ، فان لم يبلغها صيحة الحق بقيت تنوء تحت أعباء الجهالة وبلادة الفكر وسوء العقيدة ، وترزح تحت أثقال الظلم والاستبداد ، فقدم حياته فداء لعقيدته وإيمانه فى شخص رمز تلك العقيدة وذلك الايمان : سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو بهذا قـد كتب فى ديوان الحياة سفرا خالدا ، سوره وآياته عناصر الشخصية التى ينهض على يديها الاسلام ، والشخصية التى تمتز بها الأخلاق الاسلامية ، والشخصية التى يصبو اليها الوفاء فى أشرف معانيه وأرفع صـوره ، والشخصية التى يحتاج اليهـا المصلحون والزعماء والقادة ليجعلوها مثلا حافزا لضمائرهم فيما يطلبون من إصلاح .

فهل قرأ شباب الاسلام هذا السفر من حياة أبى بكر رضى الله عنه ؟ من قرأ فليفقه ، ومن لم يقرأ فليرض نفسه على أن تصحبه فى رحلة الى مغانى الخلود على ضفاف التاريخ ، فسيعود إذا وصل ورأى إشراق الشمس فى أفق الدهر شيئا آخر فى رجولته وإسلاميته ، وإيمانه بنفسه وأمته وإنسانيته ، فنحن أحوج ما نكون الى الايمان بأنفسنا وأمتنا أمة الاسلام ، وفى الأخير الى الايمان بانسانيتنا ، فهل نصل ؟ هيا والى اللقاء ؟

صادق ابراهيم عرجون

التلطف فى الاقناع

حـدث سعيد بن محمد عن نصر بن على عن الأصمعى قال : كان معاوية يعيب على عبد الله ابن جعفر سماع الغناء ، فأقبل معاوية عاما حاجا ، فنزل المدينة فمر ليلة بدار عبد الله بن جعفر ، فسمع عنده غناء على أوتار ، فوقف ساعة يستمع ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله . فلما انصرف آخر الليل مر بداره أيضا ، فإذا عبد الله قائم يصلى ، فوقف ليستمع قراءته ، فقال : الحمد الله ، ثم نهض وهو يقول : خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم . فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعـد له طعاما ودعاه ، وأحضر ابن صياد المغنى وقال له : إذا رأيت معاوية واضعا يده فى الطعام فحرك أوتارك وغن . فلما أقبـل معاوية وشرع يأكل حرك ابن صياد أوتاره وغنى بشعر عدى بن زيد :

يالبينى أو قـدى النـارا إن من تهوين قـد حارا

فطرب معاوية حتى رفع يده عن الطعام وجعل يضرب برجله الأرض . فقال له عبد الله : يا أمير المؤمنين إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان فهل ترى به بأسا ؟ فقال معاوية : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان .

الرجعية والتجديد
فى الأزهـر

كانت نهضة الإصـلاح الاجتماعى الدينى ، فى مؤخرة نواحى النهضة المصرية الحـديثة ، التى مضى بمجـدها مؤسس الأسرة المـالـكة الـكريمة وأعضاء بيته من بعده ، لأسباب ؛ منها اختلاف هـذه النهضة عما سبقها من النهضات الاسلامية الأخرى ، كالنهضة العباسية ، فى أن الدولة فى العصر العباسى كانت فى إبّان نشاطها ، وفورة قوتها ، فهضمت ما دخل عليها من علوم الأمم الأخرى وصبغته بصبغتها العربية الاسلامية ؛ فأما النهضة الحاضرة ، فقد وافت الأمة وقد نهكها ثلاثة قرون عجاف ، منذ الفتح التركى ، تركت أبناءها يساقون كالأنعام ، لا علم ، ولا حرية ، ولا رأى .

ومنها ، تعـذر الانتقال الاجتماعى فجأة من حال الى حال ، ونفور الشرقيين من تقليد الغربيين ، لما ركب فى طباع الأمم من التمسك بآدابها وعادها وتقاليدها الموروثة ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بالدين ؛ يقول الجاحظ : « فَـدَاءُ المنشأ والتقليد ، داء لا يحسن علاجـه جالينوس ؛ وتعظيم الـكبراء ، وتقليد الأسلاف ، وإلف دين الآباء ، والأنس بما لا يعرفون غيره ، يحتاج الى علاج شديد ... وضربَ الأمثال بأتباع زرادُشت فى فارس ، وعبدة البُـدّ فى الهند ، والأصنام فى الجاهلية ، مع سمو مداركهم عن ذلك ، وإنما هو الإلف والمنشأ » .

ومنها ، أن النهضة كانت فى أول أمرها نهضة عسكرية ، ثم علمية ، ولم تشمل الدين والأدب إلا فى العصر الثـانى من عصورها : عصر المغفور له اسماعيل باشا وما بعده ؛ بخـلاف نهضة سوريا ، فانها كانت نهضة دينية أدبية ، لأن المرسلين الغربيين ، هم أول من نهض فيها .

***

ولا ريب أن قبس الحرية الشخصية ، الذى تحملته البعوث المصرية الى أوربة ، فيما عادت به الى مصر من عـلوم وآراء ؛ الى شيوع العلوم الطبيعية ، وأخـذ كثير من العرب والمسلمين بأسبابها ؛ هـو منشأ ما ظهر من نهوض بعض دعاة الإصـلاح السياسى والاجتماعى والدينى فى مصر ؛ فقام الأستاذ الامام محمد عبده ، يحاول التوفيق بين الاسلام والعلوم الحديثة ، وقام قاسم أمين يطالب بتحرير المرأة ، ثم قام مصطفى كامل وغيره يدعو الى الاصلاح السياسى ... الخ .

بيد أن شيوع الحرية والعـلوم الطبيعية ، كان بجانب ناحيتهما المُصلحة ، ناحية أخرى هادمة ؛ وهى ترعرع النقد الحر « النقد العالى » الذى يطرح الأديان على بساط الشك ؛ وينقدها نقد غيرها مما ليس دينا ، ولا عقيدة ؛ ويعلل الحوادث كما تتجلى للعقل ، لا كما ترى الشرائع

والأديان ؛ وأعان على ذلك ومضى بأوفى قسط من إثمه ، شيوعُ مذهب النشوء والارتقاء ، الذى أسىء فهمه ، وأخذ الكتاب والباحثون يطبقونه على جميع الأشياء ، تطبيق من لا يرى مؤثرا سواه ، ولا علة إلاه .

وكان طبيعيا أن تلقى الدعوة الى الإصلاح الدينى إنكارا ومعارضة عنيفة ، لما أسلفنا من الأسباب ؛ ولم يكن غريبا ولا عجيبا أن تستفتى الحكومة شيخ الجامع الأزهر « الانبابى » ومفتى الديار المصرية « محمد البنا » فى : « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية ، كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء ، المعبر عنها بالكيمياء ، وغيرها من سائر المعارف ؟ » . لمّا استجابت لدعاة الاصلاح الأزهرى ، وعزمت على إدخال العلوم الطبيعية والرياضة فى منهجه ، ولكنها خشيت عواقب مفاجأة الجمهور بهذا الاصلاح المخالف لما رسخ فى أذهانهم من تقبيح العلوم الطبيعية ، ورمى المشتغلين بها بالإلحاد والكفر . فكانت فتوى الشيخ والمفتى بجواز تعليم هذه العلوم وتعلمها لنفعها فى الدين والدنيا ، تمهيدا لا بد منه ، لتشريع هذا الاصلاح ، والسير فى طريق تنفيذه . ولست أخطئ الصواب إذا أنا قررت أنه كان لشخصية الامام محمد عبده ، أثر غير صغير فى معارضة الدعوة الى الاصلاح ، لما كان معروفا عنه فى المحيط الأزهرى من التمدين ، وخلاط المتمدينين والغربيين ، مما كان كافيا وحده فى إساءة الظن به ، ومقابلة كل ما يجىء به بالريبة والحذر ؛ فكيف وهو ـ مع كل أولئك ـ أخص تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، الذى كانت جمهرة الأزهريين لا تطمئن الى تعاليمه ، ولا ترتاح الى مذاهبه فى الاصلاح ؟ ولعله لو قام بهذه الدعوة — أول أمرها — شيخ ممن توافرت الثقة به ، من كبار العلماء ، لمضى الاصلاح فى طريقه ، بخطا أوسع مما سار بها .

ومهما يكن من شىء ، فقد اتخذ الاصلاح الدينى الأزهرى طريقه الى القلوب ، وإلى العمل ؛ وكان من المحال أن يجمد والزمن يتحرك ، حتى لو لم يقم دعاة الإصلاح بالدعوة ، لأن طبيعة الحياة تأبى ذلك الجمود الجزئى ، فى جسم يتحرك ، إلا لشلل يصيب ذلك الجزء ، وهو ما تنفيه علائم الصحة الكاملة ، التى كانت تبدو واضحة فى أسارير الأزهر الشريف إذ ذاك ؛ والمعارضة والإنكار ، أبرز دلائل الحياة . ولئن كان نجاح الأستاذ الامام فى تطبيق الاصلاح محدودا ، إنه لم يمض لسبيله ، حتى نشأ من التلاميذ ، وجمع من الأنصار من تسلموا منه لواء الدعوة ، ومضوا قدما فى سبيل الاصلاح ، يعاونهم فى ذلك روح الزمن ، وعمل الطبيعة ؛ وانتشروا فى أنحاء العالم الاسلامى ، فانبعث النور فى آثارهم ، واستقامت المعاهد العلمية على الطريق المستقيم .

***

لا جرم أن الامام محمد عبده ، هو إمام الدعوة الى الاصلاح الأزهرى ؛ ولا خلاف فى أنه نجح فى بذر بذوره واستنباتها ، وتدريب من يتعهدها بعده بالتنقية والإرواء والحفاظ ؛

ولا ريب فى اطراد نموّها وترعرعها وازدهارها ، فى كل يد تسلمتها بعده ، لأن نموّها داخلى ذاتى مركب فى طبيعتها ، غير محتاج الى العوامل الخارجية المعينة ، إلا بوجه سلبى ، تكفلت به طبيعة الزمن ، ونواميس العمران . ولئن بدت حركة التجديد والإصلاح بطيئة جدا ، فليس ذلك لأنها ضعيفة ، بل لأن الحركة إنما تبدو بوضوح فيما خف وصغر من الأجسام ؛ فأما ذلك المحيط الزاخر ، فإن حركته وإن كانت أثبت وأرسخ ، هى فى مرأى العين دقيقة خفية ؛ وأسرع عقارب الساعة حركة ، هو عقرب الثوانى ؛ كما أن أثبت الخطا ، خطوة المتريث المتأنى ، وقد يكون مع المستعجل الزلل . على أن الأزهر لو أراد الحركة السريعة ما استطاعها ؛ ذلك بأن مجده منوط بالمحافظة على قديم الإسلام ، فالتجديد الثائر فيه يقلب حقيقته ؛ وإنما ينجع فيه التطعيم الثقافى التدريجى الذى يعمل فى التقريب بين الجديد والقديم ، ويوائم بين عناصرهما فى أناة ورفق ، ويؤلف بين طبيعتيهما تأليفا منسجما معتدلا ، فيه جلال القديم وفيه جمال الجديد ، فيه المخبر وفيه المظهر ، فيه الشكل وفيه الجوهر ؛ بخلاف غير الأزهر من المدارس المدنية ، فانها كلما اقتربت من الجديد ، كان النفع منها أكبر ، والخير منها أكثر ، لأنها إنما أنشئت على غرار الجديد ، فلتكن ـ إذن ـ جديدة فى الشكل وفى الصميم . ومن أبلغ الجور على الشرق أن توحّد المدرسة فيه ، على الرغم مما لتوحيدها من المزايا الجسام .

***

سار الأزهر فى طريق التجديد على هذا النسق ، وكانت الجدّة فى الشكل والمظهر ، أوضح منها فى الجوهر ـ كما قلنا ـ فأصبحت أماكن الدراسة على الطراز الحديث : نظيفة صحية نظامية ؛ وتمايزت فيه الوحدات التعليمية ؛ وفتح صدره لجميع طوائف المدرسين ، ولكل التعاليم أو جلّها ؛ وأصبح رجاله ، وزملاؤهم الآخرون ، يتعاونون على عملية التعصير والتقريب من مقتضيات الزمن بقدر الإمكان ؛ وأثمرت هذه الجهود ثمراتها القريبة ، فنشأ منه الكاتب والخطاط والمؤرخ والخطيب والمعلم ؛ وقامت الجماعات لتيسير الأحكام فى الأحوال الشخصية ، والمذاهب الدينية ؛ وارتقت البحوث اللغوية والأدبية ، وتحرر النقد الأدبى من القيود والحدود الخارجة عنه ، والتى كانت تشل من حركته ، وتضعف من نشاطه ، وصارت أحدث الآراء الأدبية تناقش فيه مناقشة حرة من كل قيد ، فيقبل منها المفيد النافع ، ويطرح منها ما لا يثبت على النقد الصحيح ، دون نظر الى القائل ، ولا مزج للشخصيات ، ولا للعقائد ، ولا للأديان ، بالقضايا الفنية ، والبحوث العلمية ؛ كما كان الشأن غالبا ، لأول عهد الأزهر بالنهوض .

فأما الثمرة الحقيقية البعيدة ، من تجديد كتب الدراسة وتهذيبها ، ومن إصلاح مناهج الدرس والبحث ، فتلك مرتبة ، تأتى فى الترتيب بعد التطعيم ، والهضم ؛ كما حصل فى العصر العباسى ؛ فاذا تطلبها الأزهر قبل أوانها ، جناها غضة فجة ، ضررها أكبر من نفعها ، وشرها أكثر من خيرها ، وجنايتها على الثقافة والدين ، أقرب تحققا من إحسانها اليهما ؛ فلتكن هذه

الخطوة مما يؤجله الجيل المخضرم العامل ، للجيل المتعلم الناشئ ، حتى تنضج تلك الثمرة فى إبانها ، وتجنى فى أوانها ؛ وإن كان قد أخذ فى أسبابها فعلا .

* * *

أما بعد ـ فقد رأيت فى أخريات هذا الزمان ، وبعد أن أصبحنا نخشى على الأزهر عثرات التجديد ، أكثر مما نخشى عليه جمود المحافظة ـ من يرمى الأزهر بالرجعية ، وبأنه بيئة غير صالحة للبحوث الحديثة ، والأفكار الجديدة ، وينعى على البعوث الأزهرية تباطؤها فى نشر ما اجتلبت من ثقافات ، وما استحدثت من آراء تناهض هذه الرجعية ، وتطاردها ، وتعفى على آثارها السيئة فى الأزهر الشريف . ولم تؤلمنى هذه التهمة ، وإنما أثارت فى نفسى عوامل الشفقة والرثاء ، لهذه الصيحة التى تنطلق ، وقد :

سارت مشرقة ، وسرت مغربا شتان بين مشرِّق ومغرِّب !

أجل إنها صيحة جاءت متأخرة كل المتأخرة ، ضائعة جد ضائعة ؛ فأين نحن من الرجعية ، وأين الرجعية منا ؟ ! لقد قطع الأزهر مراحل بعيدة المدى فى التجديد والتطور ، فى الفروع ، والأصول ، والعلوم والآداب ؛ وليس ينقصه الآن من نواحى البحث والدرس والنقد ، إلا النقد العالى ، أى طرح الاسلام على بساط البحث ، للوصول الى صحته أو فساده ؛ فهل هذا ما يريده رماة الأزهر بالرجعية من كتاب آخر الزمان ؟ ! على أن نقد المذاهب الدينية للفرق الاسلامية ، لا يزال يبحث ويدرس فى المعاهد الأزهرية ، وهو — بلا ريب — نوع من النقد العالى ؛ إلا أنه على الطريقة الاسلامية ، لا على ما سن تيودور الفرنسى ، فى كلمته المأثورة : « الكفر أول خطوة الى الفلسفة » .

فاذا لم يكن هذا مرادهم (وهو خير ما نتمناه) فهل لهم أن يضعوا أصابعهم على مواضع النقص فى المناهج الأزهرية ، حتى نستدرك مافات ، وأن يدلونا على الثقافات التى قد أباها الأزهر على طلابه وأساتذته ، فنرفع هذا الحظر ، و ـ أخيرا ـ أن يعرضوا علينا نماذج للآراء الحديثة ، والأفكار الحديثة ، والثقافات الحديثة ، حتى نعرف مبلغها من التجديد والرقى الحديث ؟ !

إننا ننتظر ذلك ، ونتطلع اليه بملء الرغبة ، ونعدهم وعدا صادقا أننا سنأخذ به عن بينة أو نهجره عن بينة ؛ فأما إلقاء الكلام على عواهنه ، واتهام البرءاء ، والفت فى أعضاد العاملين ، فذلك شأن المعوقين ، وخلق المريبين ، وما أهونه فى نظر المخلصين ! وكم نود ـ بجدع الأنف ـ أن تنقح الكتب ، وتهذب أساليب الدراسة ! بيد أننا نعد من أشنع ضروب الإفلاس ، أن نترك ما فى أيدينا من قديمنا ، قبل أن يحصل فيها ما يغنى عنها من الجديد .

فأما البقية الباقية من الرجعيين ، فما لنا نتعجل بها الزمن ؟ على أن لها وظيفة ضرورية ، هى تمثيل الطرف المحافظ ، حتى تتزن خطا المتطرفين ، فيردون الى صفوف المعتدلين ؟

كلية اللغة العربية عبد الجواد رمضان

الحسد والرقية منه

الحسد ثابت فى القرآن والسنة . وقد قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله تعالى : « وقال يا بَنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » : إنه خاف عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، فخشى عليهم يعقوب عليه السلام أن يصيبهم الناس بعيونهم .

وبالجملة فالمفسرون المتقدمون مطبقون فى تفسير الآية على هذا . وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين فيقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامّة » . ويقول : « هكذا كان يعوذ أبوكم إبراهيم إسماعيل وإسحاق » . وقد روى أن عبادة بن الصامت قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ، ثم عدت اليه آخر النهار فرأيته معافى ، فقال : إن جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، ومن كل عين وحاسد ، الله يشفيك » . ويروى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أمهم : يارسول الله إن العين اليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين ؟ قال : نعم . وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « العين حق ، ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين » . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل من وَضوئه المعينُ الذى أصيب بالعين .

وأما الذين أنكروه كأبى على الجبائى وهو رأس من رءوس المعتزلة ، فليس معهم شبهة فضلا عن حجة .

والتحقيق فى ذلك : أن الحسد تأثير روحى ، وللأرواح تأثير ليس على قانون ما تعرف من تأثيرات الأجسام ، فلا يشترط فيه اتصال ولا قرب ولا غير ذلك . ولا يمترى فى ذلك إلا من غلبت عليه أحكام الجسمانيات ونواميس الماديات ، فقد يكون التأثير نفسانيا محضا ولا يكون للجسمانية دخل فيه . وقوانين النفوس البشرية مجهولة لأكثر الناس . وليس يخفى عليك أن الانسان إذا تصور كون فلان مؤذيا له ، حصل فى قلبه غضب فيسخن مزاجه جدا . فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفسانى ؛ ومبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية . فما المانع إذاً من كون بعض النفوس تؤثر فى غيرها ، والتجارب من الزمن الأقدم تشهد لذلك وتنطق به ؟ وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما سحره لبيد بن الأعصم اليهودى فأحدث به بعض الأذى فى بدنه (لا فى عقله ونفسه) عندما جيء له بتلك العقد التى عقدها لبيد المذكور كان يقرأ عليها المعوذتين ، فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، فقام كأنما نشط

من عقال . وروى الترمذى عن ابن أبى خزامة عن أبيه قال : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله : أرأيت رقى نسترقى بها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقى بها : هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : هى من قدر الله » . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

وأما الرقى والتعاويذ فقد انفق الاجماع على جوازها إذا كانت بآيات من القرآن ، أو كانت واردة فى الحديث . ويدل على صحة ذلك أن جبريل رقى النبى صلى الله عليه وسلم كما قلنا . وعن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : « كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا يا رسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « اعرضوا علىّ رقاكم » ، ثم قال : « لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » . رواه مسلم وأبوا داود . وعن جابر رضى الله عنه قال : « لدغت رجلا منا عقرب ونحن مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال رجل : يا رسول الله أرقى ؟ قال : من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » . وعن أنس رضى الله عنه قال : « رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من العين والحُمَة(١) والنملة(٢) » . رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى . وقد رقى أبوسعيد سيد الحى الذى نزلوا به بفاتحة الكتاب ثم أخبروا النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ » الى آخر ما جاء فى الحديث ، وهو صحيح لا مطعن فيه .

ولا بأس أن نذكر لك من تلك الرقى التى كانوا يرقون بها فى الجاهلية وأقرها صلى الله عليه وسلم ولم ينه عنها : « العروس تحتفل وتكتحل ، وكل شىء تفتعل ، غير ألا تعصى الرجل » .

وأما من أنكر الحسد وتأثير النفوس من الفرق الضالة فردود عليه ولا يلتفت اليه . وإن من العلم ما يكون وبالا على صاحبه ، فانه يفتح له باب التأويل فيضل ضلالا بعيدا ، وإنما الهدى هدى الله .

وقد قال بعضهم فى بيان سر تأثير الحسد : إن اهتمام الحاسد بالمحسود يوجب توجيه نظر الحاسد اليه والتفات نفسه له على وجه الغضب ، ونفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة تؤثر فى المحسود بسبب ضعفه وقوة نفس الحاسد شرا قد يصل الى حد الإهلاك ؛ ورب حاسد يؤذى بنظره .

أسأل الله أن يقينا شر الشريرين ، ويجعلنا من الراضين الموفقين بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

---

(١) الحمة : سم العقرب . (٢) النملة : قروح تظهر فى الجنب ، فكانت نساء العرب ترقيها بتلك الكلمات مرات صباحا ومرات مساء .

باب الأسئلة والفتاوى

صلاة الظهر بعد الجمعة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

١ — ما قولكم زادكم الله علما ونورا فى صلاة الظهر بعد تأدية فريضة الجمعة ، وهل هى واجبة أم مستحبة أم بدعة ؟

٢ — هل للامام الشافعى رضى الله عنه فيها قول ؟ وما هى حجته ؟

سيد على
رئيس جمعية التعاون على البر الاسلامى

الجواب :

ورد عن الشافعى أنه قال : « لا تقام فى البلد إلا جمعة واحدة مهما كبر البلد واتسع » . وقد تمسك بظاهر هذا النص بعض أصحابه ، فمنعوا تعدد الجمعة ولو دعت اليه حاجة (كأن يكون البلد كبيرا) ، ورأوا أنها إذا تعددت كانت الجمعة الصحيحة هى السابقة ، وأنه تجب صلاة الظهر على أصحاب الجمعة المتأخرة .

ويرى الحنفية فى معتمد المذهب أن الجمعة يصح أداؤها فى أماكن متعددة من المصر الواحد لحاجة ولغير حاجة . وعليه إذا أديت جمعتان أو أكثر فى بلد واحد صح الجميع ولا تجب صلاة الظهر على أحد منهم .

ويرى المالكية والحنابلة وجمهور الشافعية أنه لا يجوز تعدد الجمعة فى البلد الواحد إلا إذا دعت الى ذلك حاجة ، فاذا تعددت الجمعة لحاجة صحت الجمعة للجميع ، ولا تجب صلاة الظهر على واحد منهم حينئذ .

وأما إذا تعددت لغير حاجة فالمالكية يرون أن الجمعة الصحيحة هى التى أديت فى المسجد الذى أقيمت فيه أول جمعة فى هذا البلد ، والشافعية والحنابلة يرون أن الجمعة الصحيحة هى السابقة ، ويرى هؤلاء جميعا فى هذه الحالة أنه تجب صلاة الظهر على من لم تصح جمعته .

ومن هنا يتبين أن الحنفية يرون عدم وجوب صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة ، واحدة كانت أم متعددة .

وأن جمهور الفقهاء يرون فى معتمد مذاهبهم صحة الجمعة إذا تعددت لحاجة . ولا شك أن البلاد التى تقام فيها الجمع الآن تتحقق فيها الحاجة الماسة الى ذلك التعدد . وعلى ذلك تكون الجمعة فيها صحيحة ، ولا تجب فيها صلاة الظهر ، بل لا تندب إلا على بعض الآراء خروجا عن الخلاف .

واللجنة ترى أن صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة من المسائل التى توسع فيها الفقه الإسلامى ، فلا ينبغى للمسلمين أن يتخذوا منها مثارا للجدل والخلف الذى يفرق الجماعة ويجعل المسلمين فى دين الله وعبادته شيعا وأحزابا : « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لستَ منهم فى شىء » . والله أعـلم ؟

فى الميراث

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى :

توفيت هانم بنت سوريال بن عطا الله القبطية عما يأتى :

١ — هيلانه سمعان خالتها الشقيقة ، وفى الوقت نفسه بنت عم أبيها .

٢ — باقى نكله سمعان ابن خالها الشقيق ، وفى الوقت نفسه ابن ابن عم أبيها .

والمراد بيان : هل الميراث كله لباقى نكله ابن خال المتوفاة بوصف أنه العاصب لأنه ابن ابن عم أبيها ، أو تكون المسألة من باب توريث ذوى الأرحام ؟ وما نصيب كل منهما على هذا ، مع مراعاة وصف القرابة من الجانبين لـكل منهما ؟

بشارة فرج الشطانوفى

بقليوب — البلد

الجواب :

الميراث كلـه للعاصب ، ولا شىء فيه للخالة التى هى بنت عم أبى المتوفاة لأنها من ذوى الأرحام ، والعاصب مقدم على ذوى الأرحام فى الميراث . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ١٠ —

الشـــــافعى

لم يتأثر الشافعى بمصر ، وإنما تأثرت مصر به .

لا يكون الفقيه متأثرا بغيره من الأشخاص أو البيئات إلا فى حالة من أربع حالات :

(١) أن يرجع عن أصل من أصوله التى كان يبنى عليها ، كأن يكون ممن يقدمون خبر الواحد على القياس ، ثم يصبح من الذين يقدمون القياس على خبر الواحد .

(٢) ألا يرجع عن أصل من أصـول مذهبه ، ولـكن يختلف فهمه فى تطبيق بعض الأصول ، فيفتى فى مسألتين متشابهتين برأيين مختلفين مع اتفاق الظروف فيهما ، فيعتبر ذلك تعديلا فى التطبيق لا فى الأصل .

(٣) أن يحـكم بحكم عام لا يخصصه بمخصص ، ثم تعـرض له حالة من الحـالات لم يكن يتوقعها ، فيدعوه ذلك الى أن يخصص ذلك العموم .

(٤) أن يتأثر فى مجموعة ثقافته وميوله ببيئة من البيئات تأثرا يجعله يستحسن ما لم يكن يستحسن ، أو يكره ما لم يكن يكره .

تلك هى الحالات التى يسوغ معها للباحث أن يحكم بأن فقيها ما تأثر بغيره من الأشخاص أو البيئات .

فهل ما ذكره الأستاذ الفاضل أحمد بك أمين من الأمثلة يعود الى حالة من هذه الحالات ؟ فلننظر فى ذلك .

المثال الأول :

كان أول هذه الأمثلة : أن الشافعى فيما كتبه عن الوقف كان إذا أراد أن يمثّل بصيغة وقفية مثّل لذلك بوقف بيت فى الفسطاط من مصر .

ولست أدرى : كيف يصلح هـذا المثال دليلا على التأثر الفقهى ، وإنما هو مثال حاضر أوحت به ظروف المكان ، فرأى أن يمثل به لتلاميذه ، ولم يفهم منه تلاميذه قطعا أن الحكم خاص بهذا البيت أو غيره من بيوت الفسطاط .

فإذا كان الأستاذ يرى أن الشافعى تأثر بهـذا الظرف المكانى فظهر ذلك فيما جرى على لسانه من مثال ، فنحن لا ننكر هذا النحو من التأثر ، ولـكن الذى ننكره هو أن يعد هذا التأثر السطحى تأثرا فى الاتجاه الفقهى ، والنظر العلمى ؛ فليس هذا النوع من التمثيل براجع الى صميم المسألة الفقهية ، وقد يصلح شاهدا يستأنس به الباحث على أن الشافعى كان يملى هذا الفصل فى الفسطاط مثلا !

المثال الثانى :

يقول الأستاذ : إن الشافعى كان يتكلم فى الطين الأرمنى والطين الذى يقال له طين البحيرة ويقارن بين أولها وطين رآه فى الحجاز .

ولا شك أن هذا أيضا لا شأن له بالتأثر الفقهى ، فمن الواضح أن أحدنا لو تـكلم فى المياه المعدنية فى أوروبا ، وقارن بينها وبين مياه حلوان مثلا ، لما صح أن يقال إنه قد تأثر فى أفـكاره بأوروبا .

فإذا كان الأستاذ يريد أن يقول إن الشافعى أعطى الطين الأرمنى حكما لم يكن قد أعطاه للطين الحجازى ، فليس هذا عدولا عن حكم قديم الى حكم آخر جـديد ؛ وإنما هما نوعان من الطين عرف أحدهما فأعطاه حكمه ، ثم عرف الآخر فأعطاه حكمه ؛ ولو وصف له الطين الأرمنى وهو فى الحجاز لأعطاه نفس الحـكم الذى أعطاه إياه وهو فى مصر .

المثال الثالث :

كان الشافعى يتكلم فى القراطيس «وهى مصرية» ويبين متى يجوز أن تسلف ومتى لا يجوز .

وهذا أيضا لا يعد اختلافا فى مذهب الشافعى ورجوعا عن قديم الى جديد ، لأن القراطيس لم تكن معروفة له من قبل ، ولم يكن له رأى سابق فيها ، ولا دخل لمصر فى حديثه عنها إلا أنها أتاحت له موضوعا جديدا يبحث فيه ويطبق فقهه عليه ، فهذا الموضوع هو الذى تأثر بفقه الشافعى لأنه اكتسب منه حكما فقهيا ، ولقد كان الشافعى وهو فى مصر يأبى أن يعطى الأوراق التى كان يتعامل بها المصريون حكم النقد ، فلو كان متأثرا بمصر لما أبى ذلك .

المثال الرابع :

كان الشافعى يتكلم فى الشعراء ومن تجوز شهادته منهم ومن لا تجوز ، فيستملى فيما يظهر « هكذا يقول الأستاذ » من حال الشعراء فى مصر .

والأستاذ ـ فيما يظهر ـ غير مطمئن الى هذا المثال كما يبدو من تعبيره ، وحق له ألا يطمئن اليه ، فان الشعراء فى بيئة الشافعى الأولى كانوا أكثر منهم فى مصر ، والفقهاء والقضاة وأهل العلم عامة كانوا ينظرون إليهم نظرة تتفق مع قوله تعالى : « والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

ولست أدرى أصح عن الشافعى أم لم يصح قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد !

ولكنه على كل حال يصور بعض الذى كان يدور بنفوس العلماء عن الشعراء يومئذ . فاذا كان الشافعى يتحدث عمن تجوز شهادته منهم ومن لا تجوز شهادته ، فليس ذلك بحديث جديد يستملى فيه من حال الشعراء المصريين خاصة ، وإنما يكون جديدا لو كان فى القديم يجيز شهادة الشعراء إطلاقا أو يمنعها باطلاق ثم رجع عن ذلك أو غيّر فى بعض تفاصيله .

هذه هى الأمثلة التى أوردها الأستاذ ، ولست أدرى إن كان لديه أمثلة غيرها لم يذكرها فى كتابه أولا . ولكن هذه الأمثلة التى ذكرها لا تنهض دليلا على تأثر الشافعى فى فقهه بمصر ، فليس فيها رجوع عن أصل عام كان يجرى عليه ، وليس فيها اختلاف فى التطبيق الفقهى يرجع الى تغير فى الفهم ، وليس فيها رجوع عن حكم عام ، وليس فيها تأثر بالبيئة الخاصة ينبنى عليه كراهة أو استحسان !

ومن الغريب أن هذا الباحث الفاضل بينما يستدل فى كتابه « ضحى الاسلام » بهذه الأمثلة على تأثر الشافعى بمصر ، تراه فى كتابه « فجر الاسلام » ينقد نظرية لابن خلدون يقرر فيها أن مدنية البلد الذى نشأ فيه الامام أو بداوته لها أثر خاص فى تكوين مذهبه ، فيقرر بأن هذه النظرية واضحة فى بعض الخلافات المذهبية ، ثم يقول :

« والظاهر أن هذا المنزع ، أعنى تقرير الإمالة للظروف التى تحيط به ، وتأثيرها فى آرائه إنما يكون حيث لا يصح نص عند الامام ، فاذا صح فلم يكن لهذه الظروف أثر فى تكوين رأيه ، ودليلنا على ذلك مثلا ما نرى من أن مذهب أبى حنيفة اعتبار الكفاءة فى الزواج نسبا ، فقريش عنده أكفاء لبعض ، وليس سائر العرب أكفاء لقريش ، والموالى ليسوا بكفء للعرب . مع أن الامام مالكا يقول : لا تعتبر الكفاءة إلا فى الدين لأنه صح عنده قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى ، إنما الفضل بالتقوى » . ولو كانت المسألة لتقدير الظروف فقط لانعكس المذهبان (١) » .

---

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ٣٠٧

وهذا نقد جيد من الأستاذ أحمد بك أمين ، ما كان أجدره بأن يطبقه على نظريته عن الشافعي ليعلم أنه لم يتأثر بمصر فى فقهه ، وإن كان قد تأثر بها فى أمثلته أو موضوعات مسائله أحيانا !

***

بقى علينا بعد هذا أن نشرح رأينا الذى نراه من أن الشافعى هو الذى أثر فى مصر ، وهذا التأثير له مظاهر ترجع الى ما يلى :

(١) كان المصريون قبل الشافعى فريقين : فريق يرى مذهب الحنفية ، وفريق يعتنق مذهب المالكية ، ثم كادوا يجمعون على مذهب المالكية ، لأنه مذهب أهل المدينة ، ولأن الناس ـ كما يقول الليث بن سعد فقيه مصر ـ « تبع لأهل المدينة التى اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن » ، فلما جاء الشافعى اجتمع له المصريون ، واتصل به بعض فقهاء المالكية وأخذوا عنه ، حتى آلم ذلك بعض كبار المصريين ، فنفسوا على الشافعى هذا النجاح ، وجعلوا يكيدون له ويدبرون لإيذائه . وقد روى ابن خلكان والكندى شيئا من ذلك ، وروى ياقوت أن هذا قد انتهى بالاعتداء على الشافعى وهو فى حلقته العلمية اعتداء حمل معه الى منزله عليلا ولم يزل به حتى مات (١) .

(٢) توفى الليث بن سعد قبيل قدوم الشافعى الى مصر ، وكان لليث فى مصر منزلة سامية ، ورأى مشهور ، فكان من عوامل ضياع مذهب الليث ، وانقراضه بين المصريين ما شغلهم به الشافعى من حضوره اليهم بنفسه ودفاعه عن آرائه ، فكأن أصحاب الليث رأوا فيه عوضا عن فقيدهم ، ولأمر ما قال الشافعى فى الليث : « هو أفقه من مالك ، ولكن أصحابه ضيعوه » .

(٣) أزكى الشافعى بين المصريين روح المناقشة والمناظرة والجدال ولم يكونوا من قبل يعرفون المناظرات الفقهية ، ومما يدل على ذلك ما رواه صاحب تاريخ بغداد من مناظرة الشافعى مع ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن عليه فى تثبيت خبر الواحد مما أدى الى أن يضع ابن عليه وعيسى بن أبان كتابا عن الشافعى والرد عليه ، والى أن يضع داود بن على الأصبهانى ردا عليهما (٢) .

(٤) انتشر مذهب الشافعى فى مصر انتشارا عظيما بهمة أصحابه ، وبحسن استقبال القبائل العربية النازحة من بلاد العرب الى مصر إياه ، ولأمر ما نرى المذهب الشافعى سائدا فى كثير من الأقاليم التى ينزع سكانها الى الأصل العربى كاقليم الشرقية مثلا .

---

(١) معجم الادباء ج ٦ ص ٣٩٥ .

(٢) انظر كتاب « فى الادب المصرى الاسلامى » للاستاذ محمد كامل حسين ص ٥٤ .

(٥) ظلت آثار الشافعى فى مصر بعد وفاته ، حتى اشتدت المنافسة بين أصحاب مالك والشافعى ، واتخذت شكلا عنيفا بات يخشى معه على الأمن والنظام ، فقد جاء فى كتاب « المغرب فى أخبار المغرب » قوله : « وفى سنة ٣٢٦ هـ عاد أصحاب مالك والشافعى الى القتال فى المسجد الجامع العتيق ، وكان فى الجامع للمالكيين خمس عشرة حلقة ، وللشافعية مثلها ، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلق ، فلما زاد قتالهم أرسل الأخشيد ونزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع . وكان يفتح فى أوقات الصلوات ، ثم سئل الأخشيد فيهم فردهم » (ص ٢٤ ج ٤ من المغرب) .

تلك بعض الآثار التى أثرها الشافعى فى مصر ، فلعلى بذلك أكون قد وضعت المسألة فى وضعها الصحيح . وإنما عنيت بمناقشة نظرية الأستاذ أحمد بك أمين وتبيين ما فيها لأمرين :

أحدها : أنى على كثرة ما بحثت لم أعثر على مسألة من المسائل الفقهية التى يظهر بها جليا كيف تأثر الشافعى بمصر ، وقد استعنت بكثير من فضلاء الشافعية فى الأزهر ، فلم أجد أحدا منهم يؤيد هذه الفكرة أو يذكر مثالا واحدا مما مر به يشجع على القول بها .

والثانى : أنى رأيت هذه الفكرة مقتبسة بنصها فى كتاب « تاريخ التشريع الإسلامى » الذى يدرسه الطلاب فى كلية الشريعة ، فلم أر بدا من التنبيه الى وجوه الخطأ فيها ، رعاية لحق الطلاب على .

ولست مع هذا بجاحد فضل الأستاذ العلامة أحمد بك أمين ، فان بحوثه العلمية الهادئة أمثلة شاهدات على فضله ونبوغه ؟ « يتبع »

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

من كلام عمر بن عبد العزيز

من ذلك ما كتبه الى عدى بن أرطاة عامله على العراق : « إذا أمكننك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك . واعلم أن ما لك عند الله أكثر مما لك عند الناس » .

وكتب الى عماله : « مروا من كان قبلكم فلا يبقى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم صغيرا ولا كبيرا ذكرا ولا أنثى إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان : مدين من قمح ، أو صاعا من تمر أو قيمة ذلك نصف درهم . فأما أهل العطاء فيؤخذ ذلك من أعطياتهم عن أنفسهم وعيالاتهم ، واستعملوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة يقبضان ما اجتمع من ذلك ثم يقسمانه فى مسكنة أهل الحاضرة ، ولا يقسم على أهل البادية » .

دراسات اجتماعية متنوعة

نشأة الحياة الاقتصادية عند العرب

لقد كانت البيئة العربية قبل الاسلام بسيطة التركب تتكون من بدو رحل لا تربطهم بالأرض وشيجة قوية لكثرة تنقلهم سعيا وراء منابت العشب ومساقط الماء ، وأخيراً استقرت فى مدن أشهرها مكة حول البيت الذى بناه ابراهيم عليه السلام ، فكان يفد اليهم رجال القبائل حاجين مزودين بخيرات من عندهم يقدمونها قرابين وصدقات ، وأدى كثرة تنقلهم فى أنحاء الجزيرة الى تنمية روح المجازفة عندهم ، وضرورة المتاجرة بينهم ، وكانت مكة محطا تتجه اليه حركاتهم لمكانتها المقدسة من الكعبة ، وكانوا قد ملأوها أصناما لكل قبيلة صنم يقطعون الفيافى ليحجوا اليه ، حتى إذا قضوا مناسكهم عاجوا على مكان قريب من المدينة يضربون به خيامهم ، ويعرضون فيه سلعهم .

فى ذلك الزمن كان للرومان مدنية مزدهرة فى شمال الجزيرة الغربى ، وللفرس أخرى فى شرقها ، وللأحباش حضارة فى جنوبها الغربى ، وتولدت فى تلك الشعوب الحاجة الى التبادل التجارى ، ولم يكن النقل فى البحر مأمونا ، فكانوا ينقلون بضائعهم عبر الجزيرة ، وتنيخ قوافلهم فى المدن الكبيرة ليتزودوا منها لسفرهم ، وكانوا يحملون من منتجات البلاد العربية معهم ، فنشأت عن ذلك حركة تجارية فى بلاد العرب كانت مورد رزق لكثير من المدائن التى انتشرت على طول خط سير القوافل فى الشرق والغرب .

وكان عرب اليمن يأتون معهم بالعبيد من الحبشة وسواحل أفريقيا الشرقية ويبيعونهم فى الأسواق ، فيشتريهم ثراة القوم من التجار والزارعين ، ليحملوا لهم بضائعهم ، أو ليخدموا لهم حقولهم وبساتينهم ، واعتمدوا عليهم فى ذلك اعتمادا جعل للاسترقاق قيمة كبيرة فى الكيان الاقتصادى للبلاد العربية . وانصرف القوم من أغنياء العرب وسادتهم الى اللهو والكلام ، وتعطلت مواهبهم العملية ، فلم تعرف لديهم مهن ولا حرف غير التجارة والزراعة . فكان أطباؤهم الشيوخ الذين اشتهروا بالكهانة والعرافة ، وكان علاجهم الكى والحجامة ، وكان صناعتهم صقل السيوف ، وعلماؤهم العارفين بالأنساب وقافة الآثار . فتجارة العرب لم تكن منظمة ولا على أساس كغيرها فى البلاد المجاورة لها مع أهميتها ، فهى من ذلك النوع المعروف

الا ن بتجارة الترانسيت والتى تجنى منه انجلترا ومصر أموالا طائلة . ذلك لأنه لم يكن عند العرب نظم مالية ، ولا ضرائب مفروضة ، ولا حواجز مشروطة ، وكان التبادل بينهم و بين غيرهم يقوم على أساس مساومة ساذجة يعود منها السورى واليهودى والفارسى بنصيب الأسد ، وكانوا إذا تعاقدوا فبالكلام ، وإذا تداينوا فبالضمان .

ولما تولدت فى العرب الحاجة الى الاتجار فى تلك البقاع ، رتبوا تجاراتهم فى رحلتين : رحلة فى الشتاء الى اليمن ، ورحلة فى الصيف الى الشام ، وبدأت تسير قوافلهم بانتظام فى تلك الرحلات الموسمية تنقل حاصلات الحجاز وما جاوره وتعود محملة بسلع الشام واليمن ، وقد برع بعضهم فى فنون المساومة ، فكانوا يستأجرونهم فى الاتجار فى عروضهم وأموالهم . وقد جلبوا معهم ضمن ما كانوا يستوردونه من اليمن والشام بذور فواكه وخضروات لاقت فى جو الطائف منبتا خصبا ، فأثمرت وآتت أكلها . وازدهرت الزراعة فى تلك الجهات ، فزاد فيها عدد السكان لاطمئنانهم فيها الى رزق مستديم ؛ كما أن كثيرين من اليهود الذين اضطرهم اضطهاد الروم فى الشام والأحباش فى اليمن الى المهاجرة ، نزحوا الى بلاد العرب واستقروا بجوار يثرب ، بعد أن حالت عصبية المجوسية فى فارس من دخولهم أرضها ، أو أنهم اختاروا ذلك المكان لأن كتابهم يبشرهم برسول منتظر يخرج من جزيرة العرب .

وقد استعمروا تلك الجهة وزرعوها ، وبذلك أصبح فى جزيرة العرب جهات زراعية تبدو عليها آثار النعمة والغنى ، فشيدت بها بيوت ، وغرست حدائق ، وأقبل العرب فيها على الترف وامتلاك العبيد والجوارى وتعدد الزوجات ، بينما تضرب قبائل أخرى خيامهم على مقربة منهم تحت رحمة الرياح ، إن اشتدت خلعتها وشتتت سكانها ، وإن ترفقت أبقتها وتركت أهلها يرعون إبلهم ، ويجمعون الكفاف لسد رمقهم . لذلك كانوا يتحينون الفرص للسطو على القرى والقوافل ، خصوصا أنه لم يكن هناك سلطة تنفيذية ، ولا هيئة مسئولة تبطش بالمعتدين منهم .

وكان المجتمع العربى فى المدن مؤلفا من كبار الملاك الرعاة والزارعين ، وأصحاب العروض والتجارة ، وطبقة الرقيق المسبيين من بلاد متمدنة ، وقد أدى هؤلاء خدمات جليلة فى نواح اقتصادية كثيرة بما نقلوه من النظم المتبعة فى بلادهم ، فنهضوا بالزراعة ، ونظموا عرض السلع فى الأسواق ، وحذقوا بعض الصناعات الأولية ، كتجفيف البلح وصناعة الرحى لدش الشعير ، وإنما كان يقوم بها الرقيق لاحتقار العرب للصناعة ، لأن خلق العربى ونزعته الى الكلام والحرية ، وأثر حالة الرعى التى تقتضى دوام التنقل فى الفضاء فى تكوينه الاجتماعى ، يجعل من الصعب عليه أن يحبس نفسه أمام قطعة يصنعها أو داخل مصنع ضيق ؛ وطبيعة إقليمهم القحل الصحراوى وعدم توفر المواد الأولية به لا يدعو الى قيام صناعات فيه ؛ لذلك لم يتجه تفكيرهم الى النواحى العملية اتجاهه ناحية نظم القوافى .

وقد اشتهر من بين العرب قريش فى الحجاز وأهل تهامة ، وثقيف فى الطائف ، والتبابعة باليمن أمام الحبشة ، والمناذرة على مقربة من العجم ، والغساسنة على حدود سورية . وقد غلبت مدنيات الحبش والعجم والروم على الثلاث الجهات الأخيرة ، فقامت بها نهضات زراعية وصناعية كانت تزدهر حينا فتتقدم فيها فنون هندسة الزراعة والعمارة ، كما يدلنا على ذلك إقامة سد مارب فى اليمن لحجز مياه الأمطار لتنظيم رى الأراضى الزراعية ، وتتدهور أحيانا لتصادم المطامع والمنازعات السياسية والدينية ، أو نتيجة ما أصاب المسيحية والمجوسية من الضعف والانحلال .

إلا أننا نعتقد أن الأفراد من أهالى تلك الجهات قد عنوا بالمسائل المالية الناتجة من مزاولة التجارة والزراعة وغيرها ، ولابد أن يكونوا فى حدود مصالحهم الشخصية قد عملوا على تنمية ثروتهم . كان ذلك حتما ، وإنما كان يجرى بطرق فردية لا رابط بينها ، فلم تكن هناك سياسة مرسومة للقبيلة ، إنما كانوا يقلدون الأمم المجاورة فيما ابتدعه أفرادها لأنفسهم من نظم .

وكانت قريش تعيش من سقاية الحاج وسدانة الكعبة ، ورعى المواشى ، والاتجار فى البضائع الواردة ؛ وكل هذه أشياء تزيد أو تنقص حسب الظروف ، ولكنهم لم يعبأوا بذلك بل كانوا مسرفين مترفين ، فلم يدخروا لمستقبلهم . وربما كان يرجع ذلك الى أن نفقات معيشة العربى قليلة ، فطعامه كان الشعير أو البلح أو اللحم ، ولبن شاة أو بعير ، وهذا متوفر فى الصحراوات ، وكان سكنه فى بيوت صغيرة أو خيام ، فلم يفكر فى تحسين مستوى معيشته لقصوره فى النواحى الصناعية والعلمية ، حتى إنهم عجزوا عندما أرادوا إصلاح الكعبة عن القيام بأعمال النجارة الأولية فاستدعوا نجّارا من مصر . كما أن صفاتهم التى اشتهروا بها كالمبالغة فى الكرم والحماسة وكثرة الحروب والانغماس فى اللهو سببت إسرافهم وضياع أموالهم ، مع العلم بأن وجود الادخار ورءوس الأموال من أهم الشروط الضرورية لبناء الدول .

إلا أن وجود الكعبة جعل أفئدة من الناس تهوى الى الحجاز من جميع البقاع العربية ، وتنظر الى قريش باكبار واحترام ، إذ هم خدمها وسدنتها ، فذاع بذلك صيتهم ، ودرّ عليهم أموالا كثيرة فى مواسم الحج ؛ كما أنه أثار الحقد والغيرة فى قلوب أهل اليمن ، فطمع ملكهم فى انتزاع مكانة قريش وتحويل تلك الأموال الى اليمن ، فبنى بيتا وأثثه بأفخر الأثاث ، وجهز جيشا مزودا بالعدد اللازمة لهدم الكعبة ، وسار لتنفيذ عزمه .

وكان لتلك الغزوة آثار بينة ، فإنه ما كاد يتحرك الجيش ويعلم الناس بغرضه حتى زلزلوا وهالهم الأمر ، وأرادت بعض القبائل صده فعجزت وأسر رؤساؤها حتى وصل الجيش الى الطائف ، فخشى أهله على زراعتهم وأسرع بعضهم الى قائده يخبرونه أن البيت الذى يقصده ليس بحيهم ، وساروا معه يرشدونه الى مكانه ، فلما اقترب من مكة دها قريشا كرب عظيم . فلما أبلغهم

القائد أنه أتى لهدم الكعبة فان خلوا سبيله دونها لم يتعرض لأحد منهم بسوء ، حرص عبد المطلب شيخ قريش على طلب إبله التى أخذها الجيش وترك حماية البيت لربه .

وتدلنا تلك الظاهرة على مبلغ اختلال النظام القبلى وقلة استعداده وعجزه عن صد قوى دولة منظمة قد رتبت شئونها وطمعت فى بسط سيادتها على غيرها . فأهل الطائف يخشون على زراعتهم ويرشدون الجيش الى البيت ليبعدوه عنهم ، ويتركونه يهدم الكعبة وفيها رمز وجودهم ، وقريش يتخلون عنها وهم يبكون عليها لضعفهم وقلة حيلتهم وهى مورد رزقهم وسبب شهرتهم وفيها آلهتهم وعبادتهم . وفى خشية أهل الطائف على بساتينهم وحرص قريش على أموالهم دليل على نمو الفكرة المادية عندهم .

وفشلت تلك الغزوة بعد أن قضى الله على هذا الجيش ، فزاد إكبار الناس لمكة واعتقاد العرب فى الكعبة وتقديسهم لها وتشوقهم للحج اليها ، وبذلك زاد دخل قريش وعلت مكانتهم ، ولكنهم احتفظوا بنظام القبيلة ، وزاد ترف سادتهم وأغنيائهم ، وعاشوا حياة معطلة كلها لهو ومجون واستهتار ، ولم يعنوا بصالح الجماعة وتنظيمها ، بل استمر المجتمع العربى قائما على غير أساس ثابت كالنبت ينمو على حافة الأنهار من تلقاء نفسه بغير ترتيب ، ويرجع ذلك الى جهلهم وركودهم العلمى .

وكما هو الحال فى كل بيئة ضعيفة جاهلة ، انتشر البغاء بين العرب لكثرة ما كان يجلبه تجار الرقيق الأبيض والخمور من فتيات الروم ونبيذ الشام المعتق الذى أولعوا به وأدمنوا تعاطيه ، وأديرت فى أحيائهم بيوت الدعارة ، وراجت بينهم سوق الفساد ، وفى طبع العربى الإسراف . ثم إن هذه الظاهرة نفسها أحوجت الكثيرين منهم الى التداين ، وأدى ذلك الى تفشى الربا الفاحش ، كما دعا الى تجمع الثروة فى أيدى نفر قليل أغلبهم أجانب عن العرب ، حتى قلت ثروة المجموعة ، وزاد انحطاط مستوى معيشة القوم .

وهكذا استمروا على تلك الحالة ، لم تؤثر فيهم غزوة الفيل ، ولم ينتبهوا للكيان الدولى الذى كان يمثله جيش أبرهة ، بل عادوا الى حياتهم الأولى ، حياة النزاع والنضال ، والحسد والبغضاء ، فكانت حرب الفجار ، ودارت رحى حرب بين الأوس والخزرج . لذلك لم يكن هذا المجتمع يبشر بقيام دولة موحدة ، تحت لواء حاكم واحد ، وفى كنف نظام سياسى ومالى عام .

وهكذا بقى العرب مفككى الاوصال فى حالة فوضى اجتماعية حتى بعث النبى الأمى عليه الصلاة والسلام ، فجاء بالمعجزة الاجتماعية الكبرى ، وسن الآية التشريعية الخالدة ، ووضع الأسس الاقتصادية المحكمة ، التى تضمن للناس سعادتهم فى الدنيا والآخرة . وهذا ما سنفصله فى البحث القادم ، إن شاء الله ؟

ابراهيم زكى

مذاهب العرب فى كلامهم

مناحى القول كثيرة ، ومذاهبه متشعبة ، لم تحتجزها لغة من لغى البشر ، ولم تقتطعها لهجة دون أخرى ، فبعث وجودها وسر تكوينها شائعان فى الأذهان ، وإن تباعدت البيئات والجدران ، فـكل قبيل له فى ذلك سهمه ، وكل أمة لها منه قسطها ، وكل لغة تنوعت فيه طرقها ، فالتقارب والتباعد والتوافق والتباين وفنون القول جميعها ، أقدار سائرة بين الناس ، قد عقدت أطرافها على اللغات جميعا . غير أن هنالك من المذاهب ما تفردت به لغة العرب أو بالغت فيه مبالغة جعلتها كأنها متفردة به . وفى هذا المنحى سنجرى القول من هذا البيان ، ونضم اليه من مذاهب القوم ما يجىء به الـكلام وافيا ، ويكون المعنى فيه واصلا . ونقدم القول بأن هذه المذاهب تدلنا على ما كان للعرب من صفاء الذهن ، وجودة الطبع ، وسلامة الإدراك وقوة التصرف ، حتى إنهم كانوا يحملون الـكلام على فهم السامع وسبق الزمن ، وتقوم الإشارة مقام الحالة ، مما جعل متكلمهم كالطبيب الحاذق يعمد بدوائه الى موطن الداء فيحسمه .

فمن مذاهبهم فى ذلك : الحذف ، وقد بذ العرب فيه غيرهم ، وفاقوا من عداهم ؛ وهو قسمان : حذف يدل عليه سياق الـكلام فيسهل فهمه ويدنو إدراكه ، وآخر يخفى دليله فيتطلب فهمه عسرا ومشقة . قال المهاجرون : « يا رسول الله إن الأنصار فضلونا فانهم آووا ونصروا ، وفعلوا وفعلوا ؛ فقال : أتعرفون ذلك لهم ؟ قالوا نعم ، قال : فانّ ذاك » . ليس فى الحديث غير هذا ، يريد أن ذاك شكر ومكافأة لهم . وقام رجل من قيس على عمر بن عبد العزيز فى حاجة له وجعل يمت اليه بقرابة ، فقال عمر : وإن ذاك ، فذكر الرجل حاجته ، فقال عمر : لعل ذاك . لم يزد على هذا ؛ ومعناه وإن ذاك كما قلت ، ولعل حاجتك أن تقضى . وجاء فى الشعر لعبد الله بن قيس :

بـكرت علىَّ عـــواذلى يلحيننى وألومهنه
ويقلن شيب قـد علاك وقـــد كبرت فقلت : إنه

وقال الأسدى لعبد الله بن الزبير : لا حملت ناقة حملتنى اليك ! قال : إن وراكبها . ولما قرأ عمر كتاب أبى عبيدة فى الطاعون استرجع ، فقال الناس : مات أبو عبيدة ؟ قال : لا وكأن قد . وقال النابغة :

أزف الترحل غـير أن ركابنـا لما تزل برحالنـا وكأن قد

وأنشد ابن الأعرابى :

إذا قيـل أعمى قلت إن وربما أكون وإنى من فتى لبصير

وقال عمر بن الخطاب : إنى لأستعين بالرجل الذى فيه . وأراد قول الأسدى :

سويد فيـــه فابغـونا سواه   أبيناه وإن بهاه تاج

أما ما يقوم دليله فـكأن يحذفوا صدر الجملة أو عجزها ، وقد يحذفون جملة كاملة أو جملا متعددة .

ومن كلامهم مذهب يذهب السامع فيه الى معانى أهله والى قصد صاحبه ، كقول الله تعالى : « وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى » ، وقال : « لا يموت فيها ولا يحيا » ، وقال : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » ، وقال لنبيه : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الـكتاب من قبلك » . قالوا لم يشك ولم يسأل . وقال عمر فى جواب كلام تقدم : متعتان كانتا على عهد رسول الله أنهى عنهما وأضرب عليهما . وقال رجل لبلال مولى أبى بكر وقد أقبل من جهة الحلبة : من سبق ؟ قال : سبق المقربون ؛ قال : إنما أسألك عن الخيـل ، قال : وأنا أجيبك عن الخير .

ومن مذاهبهم تشبيه الشيء بالشيء فى دقة تـكاد تخفى الصلة بينهما ، قال الشاعر :

بدا البرق من نحو الحجاز فشاقنى   وكل حجازى له البرق شائق

سرى مثل نبض العرق والليل دونه   وأعـلام أبلى كلها والأسالق

وقال آخر :

أرقت لبرق آخر الليـل يلمع   سرى دائبا فيـه يهب ويهجع

سرى كاحتساء الطير والليل ضارب   بأرواقه والصبح قد كاد يسطع

ومن مذاهبهم فى الـكلام حمل بعضه على بعض ، ويقولون : أصاب الهدف إذا أصاب الحق فى الجملة ، أو قرطس فلان إذا كان أجود إصابة من الأول . فإن قالوا رمى فأصاب الغرة ، فهو الذى ليس فوقه أحد . ومن ذلك قولهم . يفل المحز ، ويطبق المفصل ، ويضع الهناء مواضع النقب . ومن حملهم بعض الـكلام على بعض قول الله تعالى : « هذا نُزُلهم يوم الدين » والعذاب لا يكون نزلا ولـكنه لما أقام العذاب لهم فى موضع النعيم لغيرهم ، سماه باسمه ؛ وقوله تعالى « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وليس فى الجنة بكرة ولا عشى ولـكن على مقدار البكر والعشيات . وعلى هذا قوله تعالى : « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم » والخزنة الحفظة وجهنم لا يضيع منها شىء فيحفظ ، ولا يختار دخولها إنسان فيمنع ، ولـكن لما قامت الملائـكة مقام الحافظ الخازن سميت باسمه . وقال الشاعر :

يادار قـد غيّرها بلاها   كأنما بقـلم محاها

أخربها عمران من بناها   وكر ممساها على مغناها

وطفقت سحابة تغشاها   تبكى على عراصها عيناها

فلما بقى الخراب فيها وقام مقام العمران فى غيرها سمّى بالعمران ، وعيناها هنا للسحاب ، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريقة الاستعارة وتسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه .
وقال غيره :

يا عجّل الرحمن بالعذاب لعامرات البيت بالخراب

يعنى الفأر . يقول : هذا عمرانها ، كما تقول : ما نرى من خيرك ورفدك غير ما يبلغنا من فتك فى أعضادنا .

ومن مذاهبهم الإيجاز وتحميل الألفاظ القليلة معانى كثيرة ، وهو مذهب بذ العرب فيه غيرهم ، وساقوا فيه كثيرا من كلامهم وحكمهم وأمثالهم . وجاء فى الحديث من ذلك : « يا خيل الله اركبى . لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين . المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم » . فانظر قلة حروفه وكثرة معانيه . وقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى . ابدأ بمن تعول . لن يهلك امرؤ بعد مشورة . المستشار مؤتمن . رحم الله عبدا قال خيراً فغنم أو سكت فسلم . إياى والتشادق . أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم . إياكم والمشارة فانها تميت القرة ، وتحيى العرة . دب اليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء . ليس من أخلاق المؤمن الملق . وقال على : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » .

ومن الإيجاز والاعجاز والجزالة والبلاغة وحسن التقسيم وكمال الوصول قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . فهذه الألفاظ القليلة جمعت قصة كاملة ، وهى بعد سهلة سائغة قد وصلت بالمعنى الى غايته ، فلو سألت متوسط الذكاء عما أوجزت بلغ بك من فهمها الى ما تريد . وهذه الآية لها قصة بل قصص قديمة وحديثة ، وآخر ما رأيته منها أن بعض علمائنا المعاصرين تناولها بالتفسير فجعل سبب إعجازها مخاطبة ما لا يعقل وتنفيذه ما أمر به ، فأخرج الإعجاز عن النظم والمعنى معاً ، وحوله الى جهة خارجة لا أدرى كيف تصورها ، فاذا كانت مخاطبة الجماد مدعاة الاعجاز ، فان العرب قد خاطبوا الأطلال والدور والنياق وغيرها ؛ وإذا كان الجماد عقل ونفذ ما خوطب به فانه لا فضل لنظم القرآن فى ذلك .

ومن مذاهبهم الإطالة والوحى والإشارة ، قال أبو دؤاد بن جرير الإيادى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقد يلجأون الى ترديد المعنى إذا اقتضاه المقام ، كما فعلوا عند استنفار الناس ، وفى الأوامر السلطانية وولاية العهد ، وعند الحشد العام ، ليصح فى الأفهام ما يقصدون اليه من معنى معين . وقد تردد فى الذكر الحكيم بعض القصص والألفاظ كقصة موسى وهارون وهود وشعيب

وعاد ولوط وثمود وذكر الجنة والنار وغير ذلك ، لأنه خاطب الأمم كافة وفيها الغبى الغافل ، والمشغول الساهم ، والقوى المعاند ؛ وتعلق بهذا المذهب كثير من الكتاب ، ودافع عنه الجاحظ فى كتاب البيان ، وأخذ به كما أخذ به أديب كبير من أدبائنا المعاصرين ، ولكنه يدور فى اللفظ كثيرا بخلاف القدامى فانهم يدورون فى المعنى لبقائه وتثبيته .

ومن مذاهبهم تنويع الخطاب وما سماه المتأخرون التفاتا ، فينتقل بك من حالة الى أخرى لحكمة تقتضيها ، وقد يضيفون الى الكلمة حرفاً أو ينقصونها حرفا فينقلب معناها الى ضده ، وقد يذهبون باللفظ أو المعنى فى غير ناحية ، وإن كنت أرى أن هذا نشأ من اختلاف القبيل وتعدده .

وجاء علماء العباسيين فأضاف البيانيون منهم مذاهب أخرى نوعوا فيها الكلام تنويعاً ، وبرقشوه برقشة جعلتهم يقيمون لها فنا قائما وعلما كاملاً . وكانت إضافتهم سائغة مقبولة ، وسهلة غير مرذولة ، ولكن المتأخرين بالغوا فى ذلك مبالغة أثيمة ، وقيدوا بعضها قيودا ثقيلة يمجها ذوق اللغة وفهم أسرارها . وقد أنكر عليهم ذلك علماء عصرنا وأخذوا فى محاكاة القرون الأولى ، وإن جاء اليوم منهم من يدخل أساليب الفرنجة ويقلدها . وقد نتحدث عن ذلك بعد ؟

محمد ناصف

الاعتذار عن البخل

روى عن أبى الأسود الدؤلى أنه قال لبنيه : لا تجاودوا الله فإنه لو شاء أن يغنى الناس كلهم لفعل ، ولكنه علم أن قوما لا يُصلحهم الغنى ، ولا يَصلح لهم إلا الفقر ، وقوما لا يصلحهم الفقر ، ولا يصلح لهم إلا الغنى .

وجاء رجل من تغلب لرجل من كندة طالبا جدواه ، فقال له : يا أخا بنى تغلب إنى لن أصلك حتى أحرم من هو أقرب الى منك ، وإنى والله لومكنتهم من دارى لنقضوها لَبِنة لبنة ! والله يا أخا بنى تغلب ما بقى بيدى من مالى وأهلى وعرضى إلا ما منعته من الناس !

وقال بخيل متفلسفا : من أعطى فى الفضول ، قصر فى الحقوق .

وقال رجل لسهل بن هارون : هبنى مالا مرزأة عليك فيه . قال سهل : وما ذاك يا ابن أخى ؟ قال الرجل درهم واحد . فقال سهل يا ابن أخى لقد هونت الدرهم وهو طابع الله فى أرضه الذى لا يعصى . والدرهم ويحك عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى يا ابن أخى الى أين انتهاء الدرهم الذى هونته ، وهل بيوت المال إلا درهم على درهم ؟

مولد الرسول

صلى الله عليه وسلم

الاحتفال بالحوادث الجسام ، وخاصة الحوادث التى أفادت البشرية وأمدتها بسبب من السعادة ، سنة جرت عليها الأمم وتوارثتها الأجيال ؛ وقلما تخلو أمة استضاءت بنور المعرفة من احتفال بذكرى بطل من أبطالها ، أو واقعة حربية ذهبت بمفاخر الظفر فيها ، أو اكتشاف علمى هدى اليه عالم من علمائها .

وأهم ما يقصد من ذلك إغراء الشباب بالسعى فى طريق الرقى ، والسير على سنن ذلك البطل أو العالم ، حتى يصل الى ما وصل اليـه ، ويفيد أمته ووطنه كما أفاده ، فضلا عما فى الاحتفال من تكريم المحتفل به وتخليد ذكره .

والأنبياء عليهم السـلام أبطال التاريخ ، جلت مآثرهم فى أممهم ، وأفادت منهم فى دينها ودنياها ، واحتملوا فى سبيل ذلك ـ كما جاء فى القرآن الكريم والتاريخ الصحيح ـ ما جعلهم أهلا للتبجيل والتكريم .

ومحمد عليه الصلاة والسـلام بطل الأبطال فى تاريخ الأنبياء والانسانية عامة ، واجب على الانسانية أن تكرمه ، وتحتفل بذكرى مولده . وإن كان حقا على المسلمين أن يحتفلوا بذكرى محمد كرسول أشرقت به شمس الهداية ، وحمل اليهم رسالة الإسلام ، فخرجوا بها من الظلمات الى النـور ، وساروا على هـديها فى طريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، وأصبحوا فى وقت قصير أمة ودولة بعد أن كانوا أوزاعا لا رابطة بينهم ، ولا جامعة تجمعهم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

إن كان حقا على المسلمين أن يحتفلوا بمولد محمد كرسول ، فان حقا على غيرهم أن يحتفلوا بمولده كمحرر للانسانية ، رفع شأنها ، وأعلى قدرها ، ووضع عنها إصرها والأغلال التى كانت عليها فعاقتها عن السير فى طريق الرقى والإنتاج ، وقصرتها على رسوم باطلة فى العقائد والأعمال ؛ وكانت أعماله وأقواله قبل البعث وبعده جهادا فى تحريرها وإعدادها للغاية التى أرادها الله لها ، من استعمار الأرض ، وتسخيرها وما فيها فى خيرها وإسعادها .

فقد رغب بفطرته قبل البعث عن عبادة الأصنام ، وقومه عاكفون عليها حريصون على تقديسها ، ورثوا ذلك عن آبائهم ، وأشربوا حبها فى قلوبهم ـ احتراما لعقـله وإنسانيته ـ

وانصرف عنها يبغي معبودا يستحق أن يخلص له نفسه ، ويخضع له قلبه وجوارحه ؛ وشارك في إحياء الفضائل الانسانية كالتعاون ودفع المظالم ونحو ذلك .

روى في كتب السيرة أن محمدا عليه السلام حضر حلف الفضول (وهو حلف عقد بين بعض قبائل قريش لدفع المظالم ورد الظالم) وكان يقول : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الاسلام لأجبت » . وروى أن قريشا لما اختلفت في وضع الحجر الأسود حين بناء الكعبة وأبدى لهم الشر ناجذيه ، حكموه بينهم في شأنه ، فقال : هلم الىّ ثوبا ، فأتى به ، فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ، ووضعه في موضعه . وبذلك انحسم الخلاف وانهزم الشر . والأمثلة التي ضربها عليه السلام قبل البعث لاحترام الانسانية وتكريمها وتقديرها قدرها ، كثيرة ، تفيض بها صحف التاريخ .

أما فضله على الانسانية وإنزالها منزلتها بعد بعثه ، فلا يحيط به الوصف ، ولا يحصره البيان ؛ فلقد كان أساس دعوته توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفُواً أحد » ، « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض » .

وبذلك محا عن الانسانية عار الشرك ، وأطلقها من ذل التقليد البغيض ، وصرفها الى عبادة من يستحق العبادة .

ودعا الى استعمال العقل والتفكير في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، ونعى على الناس التقليد من غير روية ولا تدبر : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » ؟ « أو لم يتفكروا في أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » ، « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » فرفع بذلك قدر العقل ، ودفعه الى العمل بعد أن شلت حجب التقليد حركته ، فأنتج نتاجه العلمي ، فكانت العلوم والحضارات التي ترتع الانسانية في غياضها ، وتمرح في رياضها ، وتنعم بثمارها .

وحث على طلب العلم واحترام العلماء : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، « العلماء ورثة الأنبياء » ، « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » . الى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

ودعا الى الإخاء والمساواة : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » ، « يأيها الناس

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .
« الناس سواسية كأسنان المُشط » « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وقدس الحرية وطلبها ، وذم من رضى بالذل والعبودية ، ووصفه بأنه ظالم لنفسه ، قال تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » .

ودعا الى التعاون فى البر : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

وربط ما بين الطبقات برباط متين من المودة ، ففرض الزكاة ، وندب الى الصدقة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

ودعا الى الوحدة والتآلف : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

واعتبر الناس كلهم سواء أمام العدل : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

ووضع للحرب نظما وقواعد تحمل فى طياتها الرفق والرحمة ، فأمر ألا يقتل شيخ ولا طفل ولا امرأة ، وألا تهدم ديار الأعداء ولا تحرق أشجارهم ، وقد كانت فوضى لا حدود لها ولا قواعد يثيرها القوى متى لاحت له بوادر الظفر والغنيمة ، ويستبيح فيها العرض والشرف والمال .

ويطول بنا القول إذا استرسلنا فى تعداد المبادئ الانسانية السامية التى وردت فى القرآن والسنة ، والتى قام محمد حاميا لها ومدافعا عنها . وحسبنا ما ذكرنا كنموذج لهذه المبادئ لنستطيع أن نقول : إن محمدا عليه السلام خدم الانسانية عامة ، وإنه إن وجب على المسلمين الاحتفال بمولده كرسول اصطفاه الله لأداء أكمل رسالة الى البشر ، فإن حقا على غيرهم أن يحتفلوا بمولده كخادم للانسانية أخلص فى خدمتها وتحريرها وتنبيهها الى مكانها الذى وضعها الله فيه ، حيث فضلها على كثير مما خلق ، وتحمل فى سبيل ذلك من العنت والعناء والكفاح والجلاد أعظم مما تحمله خادم لها .

ونحن فى عصر من قضاياه المردّدة أن خادم الإنسانية أهل لتكريم الإنسانية ، وأن التعصب للجنس والدين واللغة خصلة بغيضة مرذولة . فان كان صدقا ما يقوله أهل العصر فمن حق محمد عليهم جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها أن يحتفلوا بمولده وبعثه وهجرته ، وإلا فحسبه جزاء الله وإكرامه ، واحتفال الملائكة والمؤمنين به : « إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

أبو الوفا المراغى

من مسائل الفلسفة

نظرة الفلسفة الميتافيزيكية

إلى الانسان

الفلسفة الميتافيزيكية : ناحية من البحث الفلسفى تحاول شرح الطبيعة من شىء خارج عنها ؛ من « ما وراء الطبيعة » . وهى طريقة من طرق التفلسف سيطرت عليه أطول مدة عرفها تاريخ الفلسفة . فتمتد منذ التفلسف المنظم ، المركز حول مبدأ معين — ومن قبل هذا النوع كذلك فى الثقافات الدينية الشرقية القديمة — حتى عهد البحث الطبيعى (الى نهضة العلوم فى أوربا) . فتصور نشأة هذا الكون عن أصل غير ذاته ؛ عن قوة هى العقل ، أو عن المادة ، أو عن ما هو أسمى من العقل أو المادة (١) ؛ عن الله ؛ يحده مؤرخو الفلسفة بأنه تصور ميتافيزيكى ؛ والتقيد به فى تعليل الكون وما فيه من موجودات وأحداث مختلفة وظواهر متعددة يطلق عليه هؤلاء أيضا نهجا فى البحث ميتافيزيكيا .

والانسان واحد من موجودات الكون المتعددة ، ولكنه من بينها أهمها فى الواقع وفى نظر الإنسان نفسه . ولذا يضع البحث الميتافيزيكى عناية كبيرة على توضيح نسبة الانسان الى الأصل العام للكون ، لأن فى توضيح هذه النسبة على الأخص توضيحا لنسبة الكون عامة الى مصوره الخارج عنه .

***

لندع عصر الديانات الشرقية القديمة وما نقل عنها من تصورات تحدد علاقة الإنسان بوجده ـ وفى تحديد هذه العلاقة تتبيَّن منزلته وقيمته ـ لأن هذه الديانات وإن اعتبرت من الوجهة التاريخية الفلسفية كمصدر مؤثر على المدارس الفلسفية المنظمة ، وهى مدارس الإغريق المختلفة ، إلا أنها مع ذلك تمثل عهدا مستقلا غير عهود الفلسفة بمعناها المتعارف .

إفلاطون ، كأول فيلسوف ميتافيزيكى منظم ، يرى أن الانسان مكوّن من جزأين مستقلين : من النفس والجسم . فالنفس جزء علوى إلهى المحدر ـ أو هو صورة ـ من النفس الكلية التى هى نفس العالم ، أى التى باشرت التأثير فيه . والجسم جزء سفلى من المادة حلت فيه النفس . وكما أن من أخص صفات النفس (قبل حلولها فى الجسم) الطهر أو الخيرية ، والعلم والحكمة ، فمن لوازم الجسم الدنس أو الشرية . واجتماع النفس مع الجسم أمر مقضى به من سابق ! ! . وإذاً كل منهما ، فى نظر إفلاطون ، مستقل عن الآخر ، وكل منهما من طبيعة غير طبيعة الآخر .

(١) المادة التى ينسب إليها المذهب الفلسفى الميتافيزيكى ليست على النحو الذى يفهمه علماء الطبيعة المحدثون .

والنفس بحلولها فى الجسم نسيت ما كان لها من معرفة بسبب كثافته . فالمعرفة التى كانت من لوازمها عبارة عن معرفة « المثل » التى تكوّن عالم الوجود الحقيقى الأبدى . وقد كانت النفس بحكم طبيعتها العلوية مع هـذه المثل . وكلما عصيت النفس رغبات الجسم وشهواته كلما تضاءلت وخفت أمها كثافته فتذكرت من معرفتها الأولى . والنفس السعيدة هى التى تعود إليها معرفتها الأولى .

ولكن لا سبيل الى هـذه السعادة — فى رأى إفلاطون — إلا أن تكف النفس عن الشهوات ، بالزهد والتريض اللذين قد يبلغان حد الفناء . ومهما كان حرص النفس على عدم تلبية مطالب المادة فإنها لا تبلغ ما تصبو إليه من تمام المعرفة ، التى ترى فيها سعادتها الكاملة ، إلا بعد فناء الجسم . عنـدئذ يزول عنها غشاء المادة فترى من جـديد ما كانت بجانبه أمس من المثل .

فالنفس فى نظر إفلاطون بطبيعتها مستقلة عن الجسم ، وعالمة فى الأزل ، وتسعى فى الحياة الدنيا لأن تتكمل بالعلم الذى أنساها إياه الجسم ، وتترقب فى كل لحظات هذه الحياة فى لهف وولع عودتها الى مقرها الأول . وإفلاطون بذلك يحدد مهمة الانسان فى هذا العالم ؛ يحددها بالسعى الى العلم والمعرفة عن طريق كفاح المادة ؛ عن طريق الزهد واتقاء رغبات الجسم . ويحدد ، تبعا لذلك ، مهمة الجماعة الانسانية ، ويراها فى إقامة دولة العلم والحكمة ؛ دولة الفيلسوف . فالفيلسوف بما حصّله من معرفة تفوق معرفة غيره ، يمثل النفس الانسانية فى صفائها وفى خيريتها ؛ يمثل النفس التى لم يتحكم فيها الجسم وشهواته . فهو أجدر بأن يكون صاحب الكلمة ، وغيره أجدر بأن يكون المطيع ، إذ أن كلمته عن تبصرة ، وتعبر عن رشد ، وأبعد عن معنى الغواية .

ومن هنا نرى أن نظرة إفلاطون الى الانسان نظرة مزدوجة : مرة الى النفس باعتبار ، ومرة الى الجسم باعتبار آخر . وهـذه النظرة المزدوجة فى رأى إفلاطون هى الأساس عنده لشرح تصرفات الانسان وتعليل تباينها . فمصدر الخير من الانسان « حكمته » ، ومصدر الشر « جهله » أو مطاوعة المـلذات الجسمية . والعلم إذاً مصدر الفضيلة أو هو نفسها ، والجهل أصل الرذيلة أو هو نفسها . والانسان فى جملته مصدر الخير ومصدر الشر والغواية . وفقط أحد المصدرين فيه سابق فى الوجود عن الآخر .

ومن هنا نرى كذلك أن إفلاطون فى الواقع يعود بمصدر الخـير فى الانسان الى صلته بموجده وهو «مثال» الخير أو إله الخير فى عالم «المثل» ، كما يرجع أصل الشر فيه الى هذا العالم ؛ الى المادة التى تكونت منها الأجسام . ولـكن لماذا كان هذا العالم شرا ؟ سؤال لم يجب عنه إفلاطون وإن كان جوابه فيما تأثر به من ثقافة .

إفلاطون بتحديد مهمة الانسان فى الحياة الدنيا بتحصيل العلم عن طريق الزهد ، يرى أن

الانسان مسئول عن تصرفاته الشهوية ؛ عن تصرفاته غير الحكمية ، لأنه يكون وقتئذ مقصراً في السعي لبلوغ غايته . ولذا كان للشرير من الانسان عقاب المهمل المفرط من ناحية ، أو عقاب المقترف للجريمة من ناحية أخرى . وعلى كل فالعقاب على ترك واجب أو فعل منهي عنه . كما أن الانسان إذا حصل المعرفة كان له ثواب المطيع ؛ في الدنيا بارتفاع المنزلة ، وبعد فناء الجسم بالصعود الى الخير المحض . وفي كلتا الحالتين : حالة الإهمال وحالة تحصيل المعرفة ، للانسان كسب واختيار .

***

هذه الأفلاطونية التي تميزت الآن نظرتها الى الانسان :

(ا) بالقول بعدم تبعية كل من النفس والجسم للآخر ؛

(ب) وباختلافهما في الطبيعة ؛

(ج) وباختلافهما في المصير — أحدهما فان والآخر باق —

لقيت نقدا شديدا من أرسطو ، لأنه نهج في البحث الفلسفي نهجا آخر ؛ نهجا طبيعيا ، أي أنه حاول شرح الطبيعة من الطبيعة ذاتها . وتبعا لاختلافه في النهج كانت نظرته الى الانسان مغايرة لنظرة أستاذه إفلاطون ، سنبينها عند عرض « نظرة الفلسفة الطبيعية الى الانسان » في مقال آخر .

ولكنها لم تذهب ضحية نقد أرسطو ، بل تجدد لها اعتبارها ، وعادت إليها حيويتها بعد قرنين تقريبا من نشأتها ، وبعد ما شكت الجماعة الإغريقية قبيل الميلاد تحت ضغط الرومان وظلمهم في قيمة الفلسفة ، وبالأخص فلسفة أرسطو ، كضمان لسيادة العدل في الوحدة الانسانية ، وتخفيف غريزة السلطان في نفس الحاكم المشرف . لأن أرسطو غالى في إيمانه بالانسان وبقدرته — لسيادة الفلسفة والحكمة — على تحقيق المساواة لأفراد الجماعة البشرية .

رجال اليهودية قبيل الميلاد ، ورجال المسيحية من بعده ، بعثوا مذهب إفلاطون من جديد وجعلوه المحور الذي يدور عليه تفلسفهم ، لغاية خاصة ابتغوها من تفلسفهم ، وهي تثبيت الدين أو ترويجه في نظر الخاصة باسم العقل والفلسفة حتى يضمنوا بقاء الأمة مجتمعة على دين واحد ، إذ العامة يكفيها في الاقناع عنوان العقيدة « Logme » ولكن طبيعة الخاصة تطلب التعليل . وكان مذهب إفلاطون بالذات هو محور تفلسف رجال الدين ، لأن نهجه في البحث يوافق نهجهم في أن كلا منهما ميتافيزيكي يعلق الكون في وجوده وفي مصيره بأمر خارج عنه ، ولأن كثيرا من حقائقهما يتفق بعضها مع بعض .

ونشأ تبعا لغاية رجال الدين من التفلسف تعديل فى الأفلاطونية أعطاها لونا جديدا ، وهو اللون الدينى ، وسميت من أجله باسم آخر يرمز الى الأصل وهذا الطارئ ؛ سميت بالأفلاطونية الحديثة .

ورجال اليهودية والمسيحية وإن أخذوا فى تفلسفهم من فلسفة الاغريق ، كعنصر أساسى ، المذهب الأفلاطونى ، إلا أنهم لم يغفلوا مذهب أرسطو ، بالأخص فى نظرته الى الانسان . لجذبوه كذلك . وبهذا صار شعار فلسفتهم المزج ؛ المزج لمذهبى إفلاطون وأرسطو بعضهما ببعض ، ومزجهما كذلك بالدين . ولكنها بالرغم من هذا المزج لم تخرج عن كونها فلسفة ميتافيزيكية، لأن عنصر الأفلاطونية كعنصر الدين كان السائد فيها . وهما ميتافيزيكيان ؛ فلم تتحول بدخول فلسفة أرسطو الى فلسفة طبيعية .

***

وطبيعى أن تكون نظرة هذا المذهب الفلسفى الميتافيزيكى الجديد الى الانسان نظرة مغايرة لمذهب إفلاطون الخالص ، لأنه دخل فى تكوينه عنصران آخران لهما نظرتهما الخاصة الى الانسان كذلك . ومغايرتها — كما سيتضح لنا فى المقال التالى — عبارة عن اضطراب فى تكييفها ، سببه الخلط المرقع والمزج المفكك ؟

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

ماهى الميتافيزيقا

أنا أشكر الأستاذ الدكتور محمد البهى ، فقد أتاح لى فرصا للكتابة فى الفلسفة كنت أمنى النفس بها فلا أجد عليها باعثا .

الفلسفة بقدر ما هى أينع ثمرات التفكير الانسانى ، وأدل على قوة سلطانه ، هى بذلك القدر نفسه أحوج الى قوامة العلم فانها فى الواقع نفحة من نفحاته . والعلم لا يزال فى ميعة صباه ، والمجهولات الوجودية محدقة بالانسان من كل جانب . وهذا العلم لم يفه بكلمة نهائية فى أى فرع من فروع المعارف ، بل هو اليوم ، وقد سلخ قرونا طويلة فى البحث والتنقيب ، أحير ما يكون حيال مسائل كان يظن أهله الأقربون الى عهد قريب أنهم وصلوا منها الى العلم اليقين ، حتى قال الأستاذ (ايزوليه) Izoulet المدرس بجامعة باريز فى مقدمة كتاب للكاتب الكبير جول بوا : « هل ما نسميه اليوم علما غير جهل مرتب ؟ »

وأنت خبير بقيمة ما يبتنى على هذا الجهل المرتب من صروح الوهم المرتب ، وهو أمر يعرفه أهل الرسوخ فى الفلسفة كما يعرفون أبناءهم ، ولكن للفلسفة فى جميع أدوارها ، حتى

ونشأ تبعا لغاية رجال الدين من التفلسف تعديل فى الأفلاطونية أعطاها لونا جديدا ، وهو اللون الدينى ، وسميت من أجله باسم آخر يرمز الى الأصل وهذا الطارئ ؛ سميت بالأفلاطونية الحديثة .

ورجال اليهودية والمسيحية وإن أخذوا فى تفلسفهم من فلسفة الاغريق ، كعنصر أساسى ، المذهب الأفلاطونى ، إلا أنهم لم يغفلوا مذهب أرسطو ، بالأخص فى نظرته الى الانسان . فجذبوه كذلك . وبهذا صار شعار فلسفتهم المزج ؛ المزج لمذهبى إفلاطون وأرسطو بعضهما ببعض ، ومزجهما كذلك بالدين . ولكنها بالرغم من هذا المزج لم تخرج عن كونها فلسفة ميتافيزيكية ، لأن عنصر الأفلاطونية كعنصر الدين كان السائد فيها . وهما ميتافيزيكيان ؛ فلم تتحول بدخول فلسفة أرسطو الى فلسفة طبيعية .

***

وطبيعى أن تكون نظرة هذا المذهب الفلسفى الميتافيزيكى الجديد الى الانسان نظرة مغايرة لمذهب إفلاطون الخالص ، لأنه دخل فى تكونه عنصران آخران لهما نظرتهما الخاصة الى الانسان كذلك . ومغايرتها — كما سيتضح لنا فى المقال التالى — عبارة عن اضطراب فى تكييفها ، سببه الخلط المرقع والمزج المفكك ؟

محمد البهى

مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

ما هى الميتافيزيقا

أنا أشكر الأستاذ الدكتور محمد البهى ، فقد أتاح لى فرصا للكتابة فى الفلسفة كنت أمنى النفس بها فلا أجد عليها باعثا .

الفلسفة بقدر ما هى أينع ثمرات التفكير الانسانى ، وأدل على قوة سلطانه ، هى بذلك القدر نفسه أحوج الى قوامة العلم فانها فى الواقع نفحة من نفحاته . والعلم لا يزال فى ميعة صباه ، والمجهولات الوجودية محدقة بالانسان من كل جانب . وهذا العلم لم يفه بكلمة نهائية فى أى فرع من فروع المعارف ، بل هو اليوم ، وقد سلخ قرونا طويلة فى البحث والتنقيب ، أحير ما يكون حيال مسائل كان يظن أهله الأقربون الى عهد قريب أنهم وصلوا منها الى العلم اليقين ، حتى قال الأستاذ (ايزوليه) Izoulet المدرس بجامعة باريز فى مقدمة كتاب للكاتب الكبير جول بوا : « هل ما نسميه اليوم علما غير جهل مرتب ؟ »

وأنت خبير بقيمة ما يبتنى على هذا الجهل المرتب من صروح الوهم المرتب ، وهو أمر يعرفه أهل الرسوخ فى الفلسفة كما يعرفون أبناءهم ، ولكن للفلسفة فى جميع أدوارها ، حتى

حينما كانت بأقاصيص العجائز أشبه ، نشوة إذا لعبت برءوس غير الراسخين خيلت إليهم أنهم هتكوا حجاب المساتير الكونية فاطلعوا على حقيقتها ، وهنا موطن الخطر على الفلسفة نفسها ، وعلى الذين يتحمسون لها . ومن أهم أغراض مجلة الأزهر معالجة هذه النشوة بإحالة الفلسفة الى قيمتها الحقيقية ، بالاستعانة بأئمتها الذين أفاقوا من غرورها .

كلمة فى الميتافيزيقا :

الذى يفهمه القارئ من مقال الدكتور البهى أن الميتافيزيقا ناحية من الفلسفة تحاول تعليل الطبيعة بسبب خارج عنها ، وقد استمرت هذه النزعة المناسبة لسذاجة القدماء حتى بعد استحالة الفلسفة الى بحث منظم على عهد أفلاطون . فلما نبغ تلميذه أرسطو نقد آراء أستاذه ، ونهج بالفلسفة نهجا طبيعيا ، أى أنه حاول تعليل الطبيعة من الطبيعة . ولكن الميتافيزيقا عاد اليها اعتبارها بعد أرسطو وبقى سلطانها الى عهد نهضة العلوم فى أوربا ، أى الى ما قبل نحو قرنين أو ثلاثة ، ومن ذلك العهد استحالت الى قيمتها الخيالية .

هذا ما يؤخذ من مقال الدكتور البهى ، وهو لا يعطى القارئ فكرة صحيحة عن ماهية الميتافيزيقا ومهمتها ، ويؤدى الى الاعتقاد بأن العقل الإنسانى قد تخلص نهائيا من أوهامها ، وأصبح مكتفيا بتعليل كل ما فى الطبيعة بقوى الطبيعة نفسها ، وأن هذه الطريقة هى النزعة العلمية ، التى يعتبر كل مجاف لها بعيدا عن بيئة العصر الثقافية .

ونحن لأجل تجلية هذا الموضوع نقول : إن أرسطو الذى قال الدكتور البهى إنه ناقض أستاذه فى مقرراته الميتافيزيقية ، هو نفسه واضع الميتافيزيقا ، أو هم تلاميذه الذين وضعوها ، وإن له كتابا اسمه (الميتافيزيقا) ، وإنه كأستاذه أفلاطون علل الوجود بسبب خارج عنه ، وإن الميتافيزيقا لم تزل شاغلة مكانتها الرفيعة من البحوث الفلسفية ، إلا لدى طائفة من الماديين الذين لم يبق لمذهبهم قيمة علمية بعد حدوث مكتشفات طبيعية محضة حطمت أصولهم تحطيما ، كما سيتبين القارئ ذلك هنا .

ونحن لأجل أن نجعل لما نقوله صبغة رسمية نأتى على تعريف علم الميتافيزيقا من أقوال أئمة الفلسفة العصرية ، فننقل الى العربية ما كتبه البروفسور إميل بوارالك فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى تحت كلمة ميتافيزيقا ، قال :

« إن كلمة ميتافيزيقا أى ما بعد الطبيعة يصعد تاريخها الى أرسطو . بل الى تلاميذه الذين أطلقوها على أحد مؤلفات هذا الفيلسوف ، واقتضى موضوعه أن يجعل بعد علم الطبيعة . فى هذا المؤلف عالج أرسطو (الفلسفة الأولية) وعرفها تارة بقوله هى : « علم الأصول الأولية وعلم العلل الأولية » وتارة أخرى بقوله هى : « علم الكائن فى حدود كينونته » ، معتبرا هذا العلم النقطة المركزية العليا للمعرفة الانسانية . ومن هذا العهد وصفت الميتافيزيقا

على وجه عام بأنها أعلى أقسام الفلسفة ، فهى التى تعالج وتحاول حل المسائل الأساسية المتصلة منطقيا بكل فكرة وبكل تحقق من وجود كائن . هـذا هو المعنى الذى أراده أرسطو من تعريفيه السابقين .

« فأما تعريفه الأول وهـو قوله : « إن الميتافيزيقا هى عـلم الأصول الأولية والعلل الأولية » ، فمفهومه أن فى كل العلوم التدليلية توجد أصول لا تستطيع البراهين أن تصل اليها ، وهى مع ذلك ضرورية للتدليل بها على حقائق أخرى ؛ ومن ناحية نجد فى جميع العلوم المستمدة من المراقبة والتجربة أن حوادثها تفسر باحالتها الى علل ، وهـذه العلل تفسر بعلل أخرى . ولـكن هـذا التسلسل ينتهى الى وقوف جميع التفسيرات عند حدود علل أولية أو نهائية ، سمِّها كما تشاء ، يستحيل الصعود الى ما فوقها . والمعروف أن جميع العلوم الخاصة لا يمكن أن تتألف إلا بافتراض مجموعة من أصول وعلل تحقق وجودها بدون إمكان تحديدها ولا تحليلها ، وكثيرا ما لا يستطاع إثباتها . من أمثلة ذلك العلوم الرياضية فانها تفترض وجود عدد وزمان وحيز الخ ؛ وعلما الطبيعة والـكيمياء فانهما يفترضان وجود مادة وحركة وقوة ونواميس طبيعية الخ ؛ وعلم الفيزيولوجيا فانه يفترض وجود الحياة الخ . ولـكن ما هو الحيز ، وما هى المادة ، وما هى الحياة ؟ لا يستطيع واحد من هذه العلوم المذكورة أن يحل هذه المسائل ، ولا أن يناقش فيها . ومع هذا إذا كانت المعرفة الانسانية لا ينبغى أن تـكون كبناء لا أساس له ولا رأس ، فلا شك فى أنه سيأتى يوم تمكن فيه المناقشة فى هذه المسائل ؛ وإذا قدر لهذه المسائل أن تحل تدريجيا لا بواسطة واحد من العلوم الخاصة كالرياضة والطبيعة والفيزيولوجيا ، ولـكن بواسطة عـلم يتوِّج جميع العـلوم ويطبع فيها وحدة من طريق التوفيق والتأليف ، فهذا العلم الذى يـكون موضوعه الأصول الأولية أو العلل الأولية هو الميتافيزيقا التى نحن بصدد الـكلام عنها .

« فلننظر الآن فى التحديد الثانى لأرسـطو وهو قوله : « الميتافيزيقا هى علم الـكائن فى حدود كينونته » فنقول : إن الموضوع الأساسى لجميع العـلوم هو الـكائن ؛ ولـكن منها ما يبحث فى بعض أنواع الـكائنات (كالطبيعة والـكيمياء والبيولوجيا الخ) ؛ ومنها ما موضوعه درس خصائص الـكائن مستقلة عن وجوده الذاتى (كعلم الرياضيات) ؛ وليس من بينها علم يدرس الـكائن فى ذاته وفى خواصه العامة فى حـدود كينونته . فالميتافيزيقا هى على التحقيق العلم الذى يعنى بدرس هذه النواميس والعلل العامة الموجدة لذلك الـكائن ، وهى تندرج كما هو واضح فى الأصول الأولية وفى العلل الأولية .

« وقد عُرِّفت الميتافيزيقا أخيرا بأنها علم العالم المطلق . وهذا التحديد يمكن استنتاجه من التحديدين السابقين ، فإنهما ينطويان على هذه النتيجة وهى : أن موضوع علم الميتافيزيقا

ليس تفصيل الكائنات والظواهر الطبيعية والنواميس ، وهى الموضوعات التى تدرسها العلوم الخاصة ، ولكن موضوعها الأساس المشترك ، والينبوع العام للكائنات وللظواهر وللنواميس ، أى الحقيقة المستترة الخالدة التى لا نهاية لها ، والتى يستمد منها كل شىء علة وجوده . وهذه الحقيقة هى الكائن الموجود بذاته ، أى الموجود المطلق . إن جميع العلوم إنما تعالج الحوادث الطبيعية أى الظواهر ، ولكن الميتافيزيقا تحاول فيما وراء هذه الظواهر أن تصل الى الكائن الحقيقى الموجود بنفسه .

« فأنت ترى الآن كنه العلاقات التى تربط الميتافيزيقا سواء أبا لعلوم الأخرى أم بسائر أجزاء الفلسفة . فالقيمة العلمية للعلوم مستقلة فى الواقع عن الميتافيزيقا ، ولكن من الناحية النظرية نرى تلك العلوم ناقصة وغامضة ما دامت مسائل الميتافيزيقا المتورطة فى مقرراتها لم تُدرس ولم تُحل . وبناء على هذا المعنى يمكن أن يقال إن الميتافيزيقا فى مقدمة جميع العلوم . ومن ناحية أخرى لا تكون البسيكوجيا (علم النفس) بدون الميتافيزيقا إلا وصفا ساذجا لطائفة خاصة من الظواهر ، وعلما أجدر أن يكون تابعا الى الفيزيولوجيا من أن يكون جزأ مكملا للفلسفة ، إذا لم يعمد فى دراسة النفس الى تلمس بصيص من نور يكشف الصميم من طبيعة الذات البشرية . ويجرى أيضا المنطق وعلم الأخلاق هذا المجرى فيبقيان ناقصين ومبهمين معا ، إذا لم يجدا فى عالم الاطلاق الأصل الأول للحق وللخير .

ثم قالت دائرة المعارف الفرنسية الكبرى :

« فى رأى (أجوست كومت) لا موجب لوجود الميتافيزيقا لأن علماءها لم يتفقوا على أصول هذا العلم المزعوم . فهى تمثل ، على مقتضى القانون ذى الثلاثة الاعتبارات اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية ، دورا متوسطا من أدوار التطور للعقل الانسانى ، ومجازا بين الديانة والعلم ، ويجب أن يستعاض عنها (بفلسفة) حسية محضة ، أى (فلسفة) مؤسسة على النتائج العامة للعلوم الخاصة .

« ولكن (الفلسفة) التى يوصى أوجوست كومت بها أليست ضربا من الميتافيزيقا ؟ أى أن غرضها سيكون محاولة تأليف وتعليل عامين بقدر ما تسمح به حالة العلوم الخاصة ؟ فأوجوست كومت بهذا الرأى لم يحذف الميتافيزيقا ولكنه يقترح أسلوبا جديدا تسير عليه .

ثم قالت :

« إن الدليل الذى يُقنع العقل بعدم ضرورة الميتافيزيقا يقتضى أن يُثبت بتحليل الادراك الانسانى بأن موضوعها يخرج عن دائرة تناوله . وقد خُيل (لكانت) أنه أقام هذا الدليل فى كتابه نقد العقل المحض فقال : إن الميتافيزيقا تتطاول الى معرفة الأشياء على ما هى عليه ،

على حين أن العقل الانسانى لا يستطيع معرفة شىء على حالة مطلقة . وإقامة ميتافيزيقا من طريق التسليم بدون دليل مما لا يمكن قبوله .

« ولكن النقد الذى يُثبت من طريق الافتراض هذه الاستحالة أليس يعتبر هو نفسه عملا ميتافيزيقيا ؟ فالميتافيزيقا إذن ضرورية حتى لإثبات استحالة وصولها الى حلول يقينية ، لجميع المسائل التى تعالجها . فهى وحدها التى تختص باثبات وتعليل هذه الاستحالة . هنا يجب أن نتذكر قول أرسطو فى ضرورة الفلسفة ، فقد قال : إذا كانت الفلسفة ضرورية وجب استعمالها ، وإن لم تكن ضرورية وجب استعمالها أيضا للتدليل على عدم ضرورتها .

« وغير هذا فإنا إن عدمنا العلم المطلق بطبيعة الأشياء ، فان العقل الانسانى يستطيع أن يحاول الوصول الى علم نسبى عنها ، فان لم يصل إليه أيضا اكتفى بافتراضات ذات درجات مختلفة فى الرجحان . وإذا كانت هذه الافتراضات تعتبر غير وافية من الناحية النظرية فانها لا تعدم أن يكون لها قيمة عملية ، لأنها تكون عرضة دائما للبحث والمناقشة .

« بناء على ما تقدم فالميتافيزيقا ، حتى لو افترض أنها لا تستطيع أن تفضى الى حلول يقينية لجميع المسائل التى تعالجها ، هى وحدها التى يختص بها أن تبرهن على هذه الاستحالة وأن تعللها . وهى ليست كما زعمه فيلسوف معاصر (هو المسيو ريبو فى مقدمة كتابه البسيكولوجيا الانجليزية الراهنة) أن الميتافيزيقا فن ونوع من الخيال المجرد ، لأنها تسد فى الجملة حاجة أساسية للعقل هى فى درجة حاجته الى العلم ، وهى حاجة ترتيب آرائنا عن الأشياء فى مجموعة قائمة بنفسها . والفارق بين الميتافيزيقا وبين العلم فى هذا الاعتبار أن هذه المجموعة يجب أن تشمل الحقيقة فى جملتها ، ولهذا فان تنظيمها لسعة نطاقه يكون أشد صعوبة وأكثر تعرضا للخطأ من المجموعة العلمية . ولكنها تعتبر مشروعة ، وقد تكون الحاجة إليها أشد ، لأنها باعتراف أوجوست كومت نفسه يتعلق بها نظام الفكر ونظام الحياة الانسانية . ينتج من هذا أن الآراء الميتافيزيقية على أية صورة كانت تتسلط على العقلية الانسانية وتقودها » .

***

هذا ما كتب على الميتافيزيقا فى أكبر موسوعة عالمية ، وهو يدل على مبلغ اعتداد الفلسفة الرسمية بها ، وحرصها عليها ، ولا عبرة بشذوذ طائفة من الماديين عنها .

إننا نعترف كغيرنا بأن الحكم على العالم الكلى المطلق ، ليس فى قدرة العقل الانسانى الجزئى المقيد ؛ ولكننا لسنا بسبيل تحديد شئون تفصيلية عنه ، بل بسبيل ربط القوى التى تعمل فى عالمنا الجزئى بالقوى الكلية المحيطة بالكون كله ، ووَصْل العلل الطبيعية المحدودة فى عالمنا بأصول أولية لها وجود ثابت فى عالم الاطلاق ، وهذا أمر تقضى به الحاجة العقلية الفطرية ، فإن البحث عن علل الحوادث أمر لا بد منه فى عالم الطبيعة ، وبتتبع العلل الجزئية ننتهى الى

علة يشعر العقل ببداهته أنها هى نفسها تحتاج الى علة ، وهذه العلة لعدم وجودها فى الطبيعة يشرئب العقل لتصورها فى عالم بعده يسميه عالم الأصول الأولية أو الميتافيزيقا .

فاذا حرم العقل من هذا اللجوء لعالم ما بعد الطبيعة أصبح علمه محصورا فى دائرة ضيقة ، ومقطوع الصلة فى نهاياته بعلم يكمله ، ولو من ناحية عامة أو افتراضية ، وهو موقف لم يستطعه العقل فى عهد من عهوده ، ولم يستطعه فى هذا العهد أيضا وقد بلغ رشده . ليس لأنه اعتاد القناعة بالأوهام ، ولـكن لأنه يرى أن علومه تصبح مبتورة لوقوفها عند حدود ليست هى حدودها النهائية ، فتدفعه الحاجة لوصلها بما يكملها من نوعها ولو افتراضا ، منتظرا أن يفتح عليه بشىء يقربه من الحقيقة المحجوبة عنه . هذا موقف لا يستطيع العقـل عنه تحولا ، لأن منطق العلم يتطلبه ، ونظـام العقل يقتضيه . لهذا قال الأستاذ إميل بوراك فيما نقلناه عنه من دائرة المعارف الفرنسية الـكبرى : « إن الآراء الميتافيزيقية على أية صورة كانت تتسلط على العقلية الإنسانية وتقودها » .

بقى الـكلام عن أرسطو :

قد علمت مما نقلنـاه عن الموسوعة الفرنسية الـكبرى أن الميتافيزيقا من وضع أرسطو أو تلاميذه ، وأن له كتابا اسمه (الميتافيزيقا) . وقد ذكر الدكتور البهى فى مقاله المنشور هنا أن أرسطو خالف أستاذه أفلاطون فعلل الطبيعة بالطبيعة ، ومؤدى هذا أنه لم يعول على الميتافيزيقا ، والواقع أنه وإن خالف أستاذه فى مواضع من الفلسفة سنبينها ، لم يخالفه فى الاعتداد بالميتافيزيقا كتكملة للعلم الطبيعى ، وقد علل فيها الطبيعة بشىء خارج عنها وهو الله والأرواح العلوية . فقد قال فى كتابه (القوسمولوجيا) : إن العالم قسمان سماوى وأرضى . أما السماوى فمتمتع بحركة دائرية صادرة عن الله مباشرة . والنجوم أزلية خالدة وهى مكونة من الأثير ولذلك لا تقبل الفساد . وسماء النجوم الثوابت هى مقر الـكون والحياة الـكاملة والنظـام الثابت . وهذه النجوم كائنات لا يعتريها الهرم حية حياة سعيدة ودائبة على العمل بدون كلال ، وهى أقرب للألوهية من الانسان .

وقال فى كتابه « الميتافيزيقا » :

إن وجود الله يثبت لدى العامة من رؤية التكمل التدريجى للـكائنات ، وبالغايات المقدرة لها فى عالم الطبيعة . ولـكن وجوده عند الخاصة يقوم علميا على تحليل أحوال الحركة العالمية . ومن ذكر الحركة ذكر معها الفاعل فيها . ولما كانت الحركة أبدية فوجدها يجب أن يكون أبديا . وهذا الموجد هو الله ، وهو منزه عن الحد والنقص والتغير ، فهو ثابت وغير متغير (وخارج عن العالم ومتميز عنه) ، كما يكون القائد للجيش متميزا عنه .

وقال إن للانسان نفسين : نفسا حيوانية وهى فانية مع الجسم ، وروحا إلهية وهى خالدة ، ومتنزلة عليه من (خارج) الطبيعة المتغيرة الفانية .

هـذا بعض ما نأتى به من مؤلفات أرسطو إدلالا على تغلغـله فى الشئون الميتافيزيقية ، وخوضه فيها بما لا يدع حاجة فى نفس مريد الاستدلال على مذهبه فيها .

هذا مايجب أن يعرفه طالب الفلسفة عن الميتافيزيقا قديما وحديثا ، وما حفزنا الى الاتيان به إلا استكمال عناصر فهم الفلسفة على وجهها الأكمل ، ولست بما أوردته من مذهب أرسطو أريد أن أنتصر لما يقرره ، فقد أصبح بخيالات الصبيان أشبه ، والميتافيزيقا ليست بمسئولة عنه ، وقد مر العلم الطبيعى نفسه بدور مثل هذا الدور الطفلى ، فكانت مقرراته قبل ألف سنة تنم عن سذاجة مضحكة ، فانتقلت تدريجيا الى ما هى عليه اليوم ، وإن كان من سيخلفنا عليها بعد ألف سنة سيرون أن بيننا وبينهم بونا شاسعا فى سعة المعرفة والبعد عن الأوهام .

من كل ما مر يتضح أن الميتافيزيقا لم توضع لغرض دينى ، ولكنها وضعت بواسطة أرسطو أو تلاميذه لغرض فلسفى ، ولم يُلق بها الى عالم الأوهام منذ نهضة العلم فى أوروبا أى منذ نحو قرنين أو ثلاثة ، ولكنها لا تزال قسما من الفلسفة الرسمية الى اليوم ، وهى من الأدوات العقلية التى لا بد منها للوصول الى فهم الوجود الذى نعيش فيه ؛ فان كنا لم نصل الى تحقيقه على مقتضى الدستور العلمى فليس بمستحيل أن نحظى بفتح جديد فى العلم تنكشف لنا منه أمور يكون لها أكبر أثر فى تقريبنا من الحقيقة .

وإذا صدق الطبيعيون فى قولهم إن الطبيعة غير مسرفة فيما تعمل ، ساغ لنا أن نقول إن هذا التعطش من العقل فى البحث عن علل الموجودات ، وتتبعها حتى تصل الى نهاية فى العالم المحسوس لا يثلج الصدر عليها ، ثم لجوءه الى النظر فيما وراء العالم المحسوس ، وتشبثه بهذه المحاولة بنهمة لا تهدأ ، إن هـذا الولوع المفرط بالوصول الى ما وراء العالم المحسوس لا يمكن أن يكون قد وُضع فيه عبثا ، ولا بد من أنه سيحفزه الى بلوغ درجة من العلم تناسب درجة هذا العامل المستعصى فيه . ومن يُجل الطرف فى كل ما حصله الانسان من الفتوحات العلمية والعملية يتحقق أنها لم تكن إلا ثمرة هذا الحافز العلوى . فهل فكر من يحاول كبته أنه إنما يحاول كبت أكرم غريزة نفسية كانت سببا فى إيصال الانسان الى كشف مساتير كان لا يخطر ببال أجرأ المتفائلين أنه سيصل الى كشفها ، وستوصله الى ما لا يحلم به من أسرار هذا الوجود الذى لا نهاية له ؟

محمد فريد وجدى

من وحى الشريعة الخالدة

ما من ظاهرة أخلاقية تمخضت عنها أطوار الوجود وأبرزتها الى آفاق المجتمع بين الظاهرات النافعة أوالضارة ، إلا كان لها من الشريعة مرد بين الأوامر والنواهى ، وبين ما صبغته فى الوجود من ألوان ، وما ألقت فيه من عظات بالغات ، ومثلات سابقات .

فللشريعة الخالدة سلطانها الأعلى فى إفاضة الخير على المجتمع فى مختلف آفاقه وشتى عصوره ، بقدر ما لها من الوازع المنبث فى أطرافه ومناحيه ؛ وهل أبلغ أثرا وأعم سلطانا وأكثر لمصالح البشرية تحريا واستقصاء من تلك التى أحاطت الوجود منذ مرحلته الأولى ببيض الفعال ونوابغ الخصال ، وحكمته بأنماط للخير مثالية ، فرسخت فيه عوامل الفضيلة ، ونادت بلسان الرسل والأنبياء فى صيحة واحـدة بين الناس كافة بما تقوم عليه السعادة للمجتمع ، وما يشقى به إذا صدف عن الحجة أو رغب عن المحجة ؟

فشريعة الكمال والبقاء هى تلك الشريعة التى أوحت الى الإنسانية الشعور بأعبائها الثقال ، فانصرفت الى خـيرها وتجنبت شرها بمقدار ما تنفعل به النفوس من دعوة الدعاة ، ورسالة الوعظة والهداة .

فهى تدعو الناس فيما تدعو الى الصـدق والبر ، والتراحم والنجدة ، والنخوة والكرم والسخاء ، وحفظ السر ، والاحتفاظ بالأمانة والعدالة ؛ ثم هى فيما وراء ذلك وما اليه تدعوهم الى مجانبة الأضداد كلها ، فمثلا تدعو الى الكف عن الإطراء فى المدح ، وترى أن ذلك الإطراء فى بعض جوانبه للممدوح قد يكون عليه إثما ووبالا ، وقد يجر اليه غرورا وخبالا .

فعلماء الأخـلاق يرون أن الإطراء نوعان : نوع يراد به الممدوح فى عارفة من عوارف هذا الكون تسلك فئة من الناس فى أفق من الخير ينتفعون به ويسيرون بحطامه غرضا من أغراض الحياة ولأوائها ؛ هذا النوع من البر بالانسانية والحدب عليها ليس فى شىء من الحظر أن يكون الممدوح عليـه إذا مثالا يحتذى ، ونمطا يقتدى ، وقبسا يستضاء به فى الظلمات الحوالك . ومما يلتحق بهذا النوع أنواع شتى لا عداد لها ، كالرئيس فى قومه يقيم فيهم المعدلة ويرفع بينهم علم اليقين ، وينشر عليهم سلطان الحق المبين ، لا يعـدل به عن الصواب بطر ، ولا ينأى به عن مظاهرة المظلومين ريح من التشيع أو الـكيد . أما المطريون على غـير حقيقة ابتغاء الزلفى وبلوغ المـآرب أو حقير المطالب ، فذلك هو الاطراء الذى دونه الملق والرياء ، وفى مرتبته ضعف الثقة برب السماء ، مع التشبث بالمخلوقين الضعفاء . هـذا النوع هو الذى

تضافرت الشرائع كلها على اطراحـه من بين ظاهرات البشرية ، وقد أهلك فيمن أهلك أمما وأباد شعوبا وقبائل ، وصيرهم مثلا فى الآخرين .

روى الشيخان فى صحيحيهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال : « سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يثنى على رجل ويطريه فى المدحة فقال : « أهلكتم ، أو قطعتم ، ظهر الرجل » . فالحديث فى ظاهر أسلوبه ينكر على الرجل مدحته لأخيه فى محضر النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الرجل لم يسلك فى طريق مدحه ما كان يجب اتباعه ؛ وما يجب اتباعه فى امتداح الخليقين به أن يسنده الى تقديره وأن يكله لحسبانه ، فإذا أطلق فى المدح كان معناه أن الممدوح منفرد بالثناء عن كل أحد ، وأنه استحق بذلك تمجيده وتقديسه . فالمفروض فى العباقرة الأفذاذ فى كل فن وفى كل عصر وجيل أن تبسط فيهم ألسنة المادحين ابتغاء لما لهم أو جاههم أو تشجيعهم ، أو طلبا للنكاية من أعدائهم ، أو ما الى ذلك . ولكن على المادح أن يكون فى ممدوحه مقسطا فى عد مفاخره وتبيان عوارفه .

وقد أباحت الشريعة الغراء أن يمدح المؤمن فى وجهه لأنه لا يفتتن بهذا المدح ، فلا يستطيل به على النظراء ، ولا ينتقم به من الأعداء ، ولا يحابى به فريقا من الأولياء والنصراء ، بل يشكر الله على أن بوأه فى الوجود مكانا عليا .

وأخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : « ذكر رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ويحك قطعت عنق صاحبك ! يقوله مرارا ، إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك ، وحسيبه الله ، ولا يزكى على الله أحدا » .

ولما كان هذا الموضوع كثير الشعب طويل الذوائب ، وكانت المجلة لا تتسع للتبسط فيه فى البحث الراهن ، فقد أرجأنا ذلك الى بحوث تالية .

عباس طه

تصحيح

وقع فى العددين السابقين خطأ نصححه فيما يلى :

	ص	س	خطأ	صواب
فى العدد الأول	د	٤	أبى جهل	وفى الأصل : أبى لهب
فى العدد الثانى	٦٦	١	حقيرة	« صغيرة

by God Himself, and to sink their tribal dissensions in the common weal of the brotherhood of faith. "O men, verily, we have created you of one male and one female; and we have divided you into peoples and tribes, that ye might have knowledge one of another. Truly, *the most worthy of honour in the sight of God is he who feareth Him most.* Verily, God is knowing and cognisant[1]."

Equality of rights was thus the distinguishing feature of the Islamite commonwealth. A convert from a humbler clan enjoyed the same rights and privileges as one who belonged to the noblest Koreish. Even a slave was admitted as a brother from the very moment of his conversion, and the highest dignitary in the state thought it no dishonour, to partake of his repast with him. Nor in the place of worship were suffered artificial differences between man and man: the high and the low, the prince and the peasant, the rich merchant of Mecca and the roaming bedouin of the desert, stood shoulder to shoulder in the presence of their common Deity. This equality and fraternity was, and is even to-day, though much weakened, the key-note of Islam and the secret of its power as a world-religion[2]. This levelling principle, underlying the tenets of the new faith, proved a veritable blessing to the Arabs in particular. Tribes and races, hitherto at war with one another, were, in the embracing fold of Islam, welded into one nation, imbued with common ideas, common aims and aspirations, and devoted to a common cause. Conflicting interests were harmonised from a loyal desire to advance the public good. The Holy Koran laid down certain principal laws, intended to govern their new relations as members of the state, to extinguish the fire of the old tribal jealousy, and to affect a union of hearts unknown before. The laws soon succeeded in bringing order out of chaos and confusion and made civic life possible for the first time in Arabia. "O believers," so run the fine verses of the Koran, "if any wicked man come to you with news, make a thorough inquiry, lest through ignorance ye harm a people and have to repent on the morrow of what ye have done; and know that an apostle of God is among you. Should he submit to you in most matters ye would certainly fall into difficulty. But God hath endeared the faith to you, and bath given it favour in your hearts, and hath made unbelief and wickedness and disobedience hateful to you. Such are they who pursue a right path,—a bounty from God and a grace: and God is knowing and wise. If two bodies of the believers are at war, then make ye peace between them with fairness and do justice; God loveth those who are just. Those who believe, are brethren; wherefore make peace between your brethren; and fear God, that ye may obtain mercy.

(1) Koran, ch. "The Apartments."

(2) T. W. Arnold, 'The Preaching of Islam.

noble in its doctrine of the duty of man to the lower creatures. There is little in it of superstition[1], less of complexity of dogmas : it is an exacting religion without the repulsiveness of asceticism ; severe but not merciless.

"Nothing in fact is more odious, according to the doctrines of Islam, than the self-inflicted torments and voluntary penance of the ascetics. It always recommends the cultivation of the social virtues and the practice of those qualities which form the graces of a corporate life. Islam laid the foundations of a social system which breathes the spirit of charity, friendship, and mutual trust among its members. So impressively did the Prophet bring these high lessons home to the Arab mind, both by precepts and example, that the tribal jealousies of centuries soon became extinct, the old spirit of revenge, inherent in the nation, died away, and the hearts of the true believers were knit together in the closest bond of sympathy and fraternity. They now felt themselves as the brethren of one and the same faith, and citizens of the same commonwealth, enjoying equal rights and privileges.

"Islam penetrated into the very hearts of the Arab people, and the old spirit of jealousy and vengeance, of hostility and ill-will, yielded place to a happy consciousness of the power of love, sympathy and fellow-feeling ; the very character of the Arab mind was changed, and many of the evils rooted in the nation were fast eradicated. Within the Islamic commonwealth the internecine wars, which were the cause of much wanton bloodshed, soon became a thing of the past ; and hostile tribes were united in faith and obedience ; and the valour which had been idly spent in domestic quarrels, was vigorously directed against a foreign enemy[2]."

XIII
The Political System of ISLAM

When the Prophet settled at Medina, he established a commonwealth based, not upon the old basis of consanguinity, but upon Religion, with the Prophet himself as the chief magistrate. The spirit of blood-revenge, derived from the fiery and sensitive temper of the Arabs which was responsible for the long-protracted blood-feuds between clan and clan, waned away, and in its place there grew up in each member of the new commonwealth a genuine, earnest desire to see the peace and unity of the commuuity maintained. The sense of tribal pride and superiority lost much of its keenness ; the bond of consanguinity was greatly relaxed. They were taught to reverence the new institution, planted through the Prophet,

(1) There is not the slightest superstition in Islam.

(2) S. L. Poole's 'Lectures on Islam.'

XI

The Social Changes Brought about by the Prophet

Dealing with the social changes brought about by the Prophet, Dr. Noldeke states[1]: "One fact among others, by which we can estimate the striking impression the Prophet produced upon the Arabs, is that as each tribe submitted, or adopted his religion, it renounced the right of retaliation for the bloodshed in the struggle. Under other circumstances, this renunciation of blood-revenge, or of wergild at least, would have seemed to the Arab the lowest depth of humiliation. This was, indeed, so striking a feature of the new brotherhood that it could not fail to make a silent but deep impression upon the unbelieving multitude who now began to feel the power of the new religion.

"To those who seek miracles, this glorious result, achieved in less than a decade, constitutes a real and splendid miracle of Islam, which alone gives it the title, to be ranked as a great religion and a wonderful civilising agency. In an exquisitely beautiful passage, full of grace and wisdom, the Holy Koran draws a contrast between the life and manners of the Arabs in the shade of Islam and those in pre-Islamic times; and urges upon the true believers a true union of hearts, and dwells on the real purpose of the advent of the new religion. Here is a translation of the verses: 'O ye believers, fear God as He deserveth to be feared; and die not but as true Muslims. And hold ye fast by the cord of God, all of you, and do not scatter yourselves, and remember God's goodness towards you, *how that when you were enemies. He united your hearts, and through His grace, ye became brethren*, and when ye were on the brink of the pit of fire, He drew you back from it; thus clearly God showeth His signs, that ye may be guided. And let there be among you a people who invite to the good, and enjoin the right, and forbid the wrong: and these are they who shall succeed. And be ye not like those who have broken into divisions and fallen into variance, after the clear proofs have come to them; and for those there waits a terrible chastisement."

XII

The Political Organisation Wrought by the Advent of Islam

"Islam", writes Mr. Stanley Lane Poole, "is a form of pure theism, simpler and more austere than the theism of most forms of modern Christianity[2], lofty in the conception of the relation of man to God, and

---

(1) Dr. Noldeke's Book on Islam.

(2) In fact there is not to be found such a pure theism in any other religion than Islam.

concubines, why should not they raise the same objection against such of the Old Testament prophets whose number of wives and concubines had by far exceeded that number ?

David had six wives and numerous concubines (2 sam. v. 13 ; 1 Chron. iii, 1-9 ; xiv. 3); Solomon as many as 700 wives and as many as 300 concubines, (Kings xi. 3). Rehoboam had 18 wives and 60 concubines (2 Chron. xi. 21), a plurality expressly forbidden to the sovereign of Israel, who was commanded not to multiply wives to himself (Deut. xvii. 17).

Honestly speaking, prejudice and partiality alone reign over all the writings of Christian missionaries, when they deal with the person and character of the Holy Prophet.

The mere fact that the Prophet Mohammad entered into polygamous relationship, should not be made the pretext for attacks on his unsullied character, vouched for by friends and foes alike. The circumstances, connected with the marriages of the Prophet must be taken into consideration, in order to come to a right conclusion. As already stated [1], he passed his adult days with an elderly widow and did not condescend to enter into another wedlock, even though the Meccan elders gladly agreed to place the most beauteous damsel of the wealthiest family at his disposal. However, later on, in the declining years of his life, he married a number of wives who, with the solitary exception of Ayesha, were either widows or divorced women. These facts, viewed in the light of the truth that the Prophet passed his days in preaching and actively pushing the cause of his new faith, and his nights in prayer, and that the Prophet was universally believed to be an honest man, endowed with all the qualities of moral greatness and all the attributes of virtuous manliness, bring home the conviction to every sound mind, that sensuality as a motive of action, is conspicuous by its absence in the life of the Holy Prophet of Islam. Each of his marriages brought a world of social and political good to the Moslem community, and these marriages were a valuable instrument in welding together the contending factions of Arabia into a united community. Had polygamy, allowed by the Prophet under reasonable restraints and limitations, been a social bane, as some prejudiced critics try to assert, it would have hampered the moral elevation of the corrupted Arabs. But with the adoption of Islam as a moral code the moral improvement grew apace, and the transformation wrought in the moral condition of Arabia, is without a parallel in the history of the world.

---

(1) Vide pp. 68—70 of this Book.

"It is this perfect abnegation of self, connected with this apparently heartfelt piety, running throughout the various phases of his fortune, which perplex one in forming a just estimate of "Mahomet's" character. However he betrayed the alloy of earth after he had worldly power at his command, the early aspirations of his spirit continually returned and bore him above all earthly things. Prayer, that vital duty of Islamism, and that infallible purifier of the soul, was his constant practice. 'Trust in God', was his comfort and support in times of trial and despondency. On the clemency of God, we are told, he reposed all his hopes of supernal happiness. Ayesha relates that on one occasion she inquired of him, 'Oh, prophet, do none enter Paradise but through God's mercy?' 'None, none,-none,' replied he, with earnest and emphatic repetition. 'But you, Oh prophet, will not you enter excepting through His compassion?' Then 'Mahomet' put his hand upon his head, and replied three times, with great solemnity, 'Neither shall I enter Paradise, unless God cover me with His mercy.'

"When he hung over the death-bed of his infant son Ibrahim, resignation to the will of God was exhibited in his conduct under this keenest of afflictions; and the hope of soon rejoining his child in Paradise was his consolation. When he followed him to the grave, he invoked his spirit, in the awful examination of the tomb, to hold fast to the foundations of the faith, the unity of God, and his own mission as a prophet. Even in his own dying hour, when there could be no longer a worldly motive for deceit, he still breathed the same religious devotion, and the same belief in his apostolic mission. The last words that trembled on his lips ejaculated a trust of soon entering into blissful companionship with the prophets who had gone before him[1]."

X

Attacks of Christian Divines against the Private Character of the Prophet

The manner, in which Christian divines have attacked the private character of the prophet, is indeed very surprising. They seem to reject the sacred mission of the Prophet Mohammad merely on account of his polygamous marriages etc., when yet they receive as inspired the sayings of Balaam, David or Solomon. Missionaries should not, as a rule, attack the character of Mohammad.

If the prophetic mission of Mohammad should be rejected by the ministers of the church on account of his having had nine wives and two

(1) W. Irving's Life of 'Mahomet' (Bell & Daldy, London) p. 200.

To assail it, must draw on himself the hostility of his kindred, the indignation of his fellow-citizens and the horror and odium of all his countrymen who were worshippers of the Kaaba.

"Was there anything brilliant in the outset of his prophetic career to repay him for these sacrifices, and to lure him on ? On the contrary, it was begun in doubt and secrecy. For years it was not attended by any material success. In proportion as he made known his doctrines and proclaimed his revelations, they subjected him to ridicule, scorn, obloquy, and finally to an inveterate persecution, which ruined the fortunes of himself and his friends ; compelled some of his family and followers to take refuge in a foreign land ; obliged him to hide from sight in his native city, and finally drove him forth a fugitive, to seek an uncertain home elsewhere. Why should he persist for years in a course of 'imposture' which was thus prostrating all his worldly fortunes, at a time of life when it was too late to build up anew ?

"He was forty years of age before he first broached his doctrines. He suffered year after year to steal away, before he promulgated them outside of his own family. When he fled from Mecca, thirteen years had elapsed from the announcement of his mission, and from being a wealthy merchant, he had sunk to be a ruined fugitive. When he reached Medina, he had no idea of the worldly power that awaited him ; his only thought was to build a humble mosque where he might preach ; and his only hope, that he might be suffered to preach with impunity.

"His military triumphs awakened no pride nor vainglory, as they would have done had they been effected for selfish purposes. In the time of his greatest power he maintained the same simplicity of manners and appearance as in the days of his adversity. So far from affecting regal state, he was displeased if, on entering a room, any unusual testimonial of respect were shown him. If he aimed at universal dominion, it was the dominion of faith ; as to the temporal rule which grew up in his hands, he used it without ostentation, and he took no step to perpetuate it in his family.

"The riches which poured in upon him from tribute and the spoils of war were expended in promoting the victories of the faith ; and in relieving the poor among its votaries ; insomuch that his treasury was often drained of its last coin. Omar Ibn Al Hareth declars that 'Mahomet' at his death, did not leave a golden dinar nor a silver dirham, a slave nor a slave-girl, nor anything but his gray mule Daldal, his arms and the ground which he bestowed upon his wives, his children, and the poor.

His intellectual qualities were undoubtedly of an extraordinary kind. He had a quick apprehension, a retentive memory, a vivid imagination, and an inventive genius. His ordinary discourse was grave and sententious, abounding with those aphorisms and epilogues, so popular among the Arabs; at times, he was excited and eloquent, and his eloquence was aided by a voice musical and sonorous.

He was sober and abstemious in his diet, and a rigorous observer of fasts. He indulged in no magnificence of apparel, the ostentation of a petty mind, neither was his simplicity in dress affected, but the result of a real disregard to distinction from so trivial a source. His garments were sometimes of wool, sometimes of the striped cotton of Yemen, and were often patched. He forbade the wearing of clothes entirely of silk; but permitted a mixture of thread and silk.

He was scrupulous as to personal cleanliness, and observed frequent ablutions. In his private dealings he was just. He treated friends and strangers, the rich and the poor, the powerful and the weak, with equity, and was beloved by the common people for the affability, with which he received them, and listened to their complaints. He was naturally irritable, but had brought his temper under great control, so that even in the self-indulgent intercourse of domestic life, he was kind and tolerant. 'I served him from the time I was eight years old,' said his servant Anas, 'and he never scolded me for anything, though things were spoiled by me.'

IX

The real Motives of the Prophet

W. Irving, seeking to discover the real motives of 'Mahomet', 'in giving himself for a prophet of God', put the following questions, which he himself answered :—

"Was it riches? His marriage with Khadija had already made him wealthy, and for years preceding his 'pretended vision', he had manifested no desire to increase his store. Was it distinction? He already stood high in his native place, as a man of intelligence and probity. He was of the illustrious tribe of Koreish, and of the most honoured branch of that tribe. Was it power? The guardianship of the Kaaba, and with it the command of the sacred city, had been for generations in his immediate family, and his situation and circumstances entitled him to look forward with confidence to that exalted trust. In attempting to subvert the faith, in which he had been brought up, he struck at the root of all these advantages. On that faith were founded the fortunes and dignities of his family.

Earnestness and Honesty of Mohammad at Mecca: "As he was himself subject to convictions thus deep and powerful, it will readily be conceived that his exhortations were distinguished by a corresponding strength and cogency. Master of eloquence, his language was cast in the purest and most persuasive style of Arabian oratory. His fine poetical genius exhausted the imagery of nature in the illustration of spiritual truths; and a vivid imagination enabled him to bring before his people the Resurrection and the Day of Judgment, the joys of believers, in Paradise, and the agonies of lost spirits in Hell, as close and impending realities. In ordinary address, his speech was slow, distinct, and emphatic; but when he preached, his eyes would redden, his voice rise high and loud, and his whole frame agitate with passion, even as if he were warning the people of an enemy, about to fall on them the next morning or that very night."

His disposition : "When Ayesha was questioned about Mohammad, she used to say: 'He was a man just such as yourselves; he laughed often and smiled much.' If he had the choice between two matters, he would always choose the easier, so that no sin accrued therefrom. He never took revenge, excepting where the honour of God was concerned. When angry with any person, he would say: 'What hath taken such a one that he should soil his forehead in the dust.'"

Humility : "His humility was shown by his riding upon asses, by his accepting the invitation even of slaves, and when mounted, by his taking another behind him. He would say: 'I sit at meals as a servant doth, and I eat like a servant, for I really am a servant;' and he would sit as one that was ready to rise. He discouraged supererogatory fasting, and works of mortification. He hated nothing more than lying; and whenever he knew that any of his followers had erred in this respect, he would hold himself aloof from them, until he was assured of their repentance."

Attitude at Prayers: "He used to stand for such a length of time at prayer that his legs would swell. When remonstrated with, he said: 'What, shall I not behave as a thankful servant should?' He never yawned at prayer. When he sneezed, he did so with a subdued voice, covering his face. At funerals he never rode; he would remain silent on such occasions, as if conversing with himself so that the people used to think he was holding communication with the dead[1]."

The following are abstracts of Washington Irving's account of the characteristics of the Prophet Mohammad[2].

---

(1) Sir William Muir's The Life of Mohammad.

(2) Life of Mahomet by Washington Irving (Bell & Daldy, London 1864).